كراسات
ماركسية (1)

سلامة كيلة
يقدم

البيان الشيوعي

ماركس - انجلز



كراسات ماركسية (1)

كارل ماركس
فريدريك إنجلز

"الاشتراكية تبدأ من إلغاء الملكية الخاصة"

البيان الشيوعي

رقم الإيداع: 2014/8661

ISBN: 978-977-751-036-3

روافد
للنشر والتوزيع

روافد للنشر والتوزيع
تليفون : 2235071-0122 2+

rwafead@gmail.com

www.rwafead.com

تصميم الغلاف: غادة خليفة

الإخراج الداخلي: أحمد عبد المقصود

مقدمة

ملاحظات حول البيان الشيوعي

"هـذا الكتـاب يعـرض بوضـوح ودقـة عبقريين المفهوم الجديد للعالم، يعرض المادية المتماسكة التي تشمل أيضاً ميدان الحياة الاجتماعية، والديالكتيك بوصفه العلم الأوسع والأعمق للتطور، ونظرية النضال الطبقي والدور الثوري الذي تضطلع بـه في التـاريخ العـالمي البروليتاريا، خالقة المجتمع الجديد، المجتمع الشيوعي"

لينين

إذا كان البيان الشيوعي هو الأساس الذي أعلن نشوء الشيوعية، هذا الاتجاه الذي تبلور من خلال كتابات ورؤى ماركس وإنجلز، وظل يشكل مفصلا حاسمًا في تطور الفكر البشري، فإن المقدمات التي كتبت فيما بعد لها أهميتها كذلك، رغم أنها لم تصبح جزءًا من النص، أو أنها لا تعامل كجزء من النص. فهي تشير إلى جوهر الفكرة التي توصل إليها كل من ماركس وإنجلز من جهة، كما تتناول مسائل لم يلمسها البيان من جهة أخرى، وخصوصًا هنا المسألة القومية.

فقد وضع إنجلز معظم هذه المقدمات، حسب الأمم التي ترجم البيان إلى لغتها، عدا مقدمة الطبعة الألمانية لعام 1872، والروسية الثانية لعام 1882، اللتين وضعتا موقعتين باسم ماركس وإنجلز. وإذا كانت أهمية هاتين المقدمتين ناتجة عن الرؤية التقييمية التي وضعاها بعد ربع قرن من صدور البيان، وبالتالي يمكن، من خلالها، تلمس طريقة تعاملهما مع نص كتباه، وهو هنا تعامل قام على النقد من جهة، وملاحظة صيرورة الزمن التي فرضت وقائع جديدة من جهة أخرى. إذا كان هذا هو وضع المقدمتين فإن مقدمات إنجلز التي كتبت لأمم أخرى تلمست المسألة القومية بالذات، حيث كانت إيطاليا مجزأة وبولونيا محتلة، وهو الأمر الذي سمح بتوضيح أكثر لفهمهما للمسألة القومية يعزز ما ورد في النص ذاته.

والملاحظ أن معظم مقدمات إنجلز تدور حول فكرة أساسية كان يتقصد التركيز عليها لأنها في جوهر التحول الذي أحدثاه (رغم أن إنجلز كان يشير إلى أن ماركس هو الذي توصل إليه). هذا إضافة إلى أفكار تخص غالبًا القضايا التي تتعلق بوضع الأمم التي تصدر الترجمة بلغتها. والمدقق في هذه المقدمات يقع على مسألتين منهجيتين جوهريتين، لكنه يقع كذلك على مسألتين أخريين هامتين تخصان قضايا محدّدة لها طابع سياسي.

فأولا: تحاول المقدمات بمجملها تلخيص جوهر البيان، وتوضيح "القفزة" التي أضافها في تاريخ الفكر الإنساني، بتلمسه للنقلة النوعية التي أوجدت "الماركسية". يقول إنجلز في مقدمة الطبعة الألمانية لعام 1883 "إن الفكرة الرئيسية السائدة في —البيان— وهي أن الإنتاج الاقتصادي والبناء الاجتماعي الذي ينشأ بالضرورة عنه، يؤلفان في كل عهد تاريخي أساس التاريخ السياسي والفكري لهذا العهد، ولذا فالتاريخ بأسره (منذ انحلال الملكية البدائية المشاعية للأرض) كان تاريخ نضال بين الطبقات" (ص 99). ويقول في مقدمة الطبعة الإنجليزية لعام 1888 "إلا أني أرى من واجبي أن أعلن أن فكرته الرئيسية التي تشكل جوهره، إنما هي فكرة ماركس، وهي الفكرة التالية: إن الأسلوب الاقتصادي السائد في الإنتاج والتبادل يشكل، في كل حقبة تاريخية معينة، مع التنظيم الاجتماعي المنبثق بالضرورة عنه، الأساس الذي يقوم عليه تاريخ هذه الحقبة السياسي والفكري، والذي يمكن بالاعتماد عليه فقط تفسير هذا التاريخ. وبالتالي، فإن كل تاريخ الإنسانية (منذ انحلال المجتمع البدائي القبلي، والملكية المشاعية للأرض) قد كان تاريخ النضال بين الطبقات" (ص 106– 107).

ولعل هذه هي الفقرة الأولى في نص البيان، حيث " أن

تاريخ كل مجتمع إلى يومنا هذا لم يكن سوى تاريخ النضال بين الطبقات" (ص 21).

ولاشك في أن هذه النقطة، رغم كل التطورات في الفكر السياسي قبل ماركس، هي التي مهدت لتأسيس رؤية جديدة للتاريخ، ومن ثم للحاضر، وبالتالي للمستقبل. وحري بنا أن ندقق فيها، رغم أنها غدت واضحة إلى حد بعيد، إلا أن هذا الوضوح المبهر قد أعمى العيون، فسقطت ولم تعد أساس الدراسة والبحث، وأصبحت جملة إنشائية ليس إلا. أليس حري بنا أن ندرس الأساس الاقتصادي الاجتماعي لكل البنى السياسية القائمة (الدول، الأحزاب..)، وأن نرى كيف أن هذه البنى هي انعكاس للبنية الاقتصادية الاجتماعية؟ ولماذا هذه البنية تنتج هذه الأشكال على وجه التحديد؟

إن الأساس هنا، إن الجوهري هنا، هو تراكب المجتمع على الأساس الاقتصادي، والبنية الاجتماعية التي تنتج عنه، وكل قفز عن هذا الأساس لن يؤسس لرؤية علمية، وفهم حقيقي للواقع. فالمستوى الاقتصادي هو "المحدِّد"، وإن كان ذلك يتحقق في التحليل الأخير. بالتالي يجب أن نبدأ بالاقتصاد، وهذا ما قاد ماركس إلى البحث في الرأسمالية ليبلور أهم ما كتب: رأس المال.

ثانيًا: كُتب البيان سنة 1847، لكن المقدمة الأولى مؤرخة بتاريخ 1872، والتي هي بتوقيع كل من ماركس وإنجلز. والفرق الزمني بين النص والمقدمة هو حوالي 25 سنة. والملفت أن ماركس وإنجلز يقولان في المقدمة آنفة الذكر "ورغم أن الظروف تبدلت كثيرًا خلال السنوات الخمس والعشرين الأخيرة، فالمبادئ العامة، والواردة في هذا البيان، لا تزال بالإجمال محافظة حتى اليوم على كل صحتها، وإن كان يجب إدخال بعض التعديل على عدد من الفقرات. إن البيان، نفسه، يوضح أن تطبيق هذه المبادئ يتعلق دائمًا وفي كل مكان بالظروف والأوضاع التاريخية في وقت معين..."، ثم يقول "وقد شاخ هذا البرنامج اليوم في بعض نقاطه، نظرًا للرقي العظيم في الصناعة الكبرى.."(ص 93).

وهنا نجد شيئًا من النقد، ورؤية علمية تبرز في الربط بين النص والواقع، لهذا فالمقدمة "تعترف" بأن بعض نقاط البيان قد شاخت. وهنا نلمس أنهما يسقطان قداسة النصوص، حيث لا نص مطلق، وأن التطور الواقعي يتجاوز النصوص (وبالتالي يفرض الحاجة إلى نصوص جديدة). هنا يظهر النسبي واضحًا، ويحرّم المطلق، لأن النص خاضع للواقع العياني، لأنه نتاجه، وحين يتبدل الواقع تنتفي النصوص لتصبح جزءًا من التراث (من التاريخ).

لكن المقدمة توضح أيضًا مسألة جوهرية أخرى، هي مسألة العلاقة بين العام والخاص، الرؤية العامة والرؤى الخاصة، لأن هناك مبادئ عامة رغم أنها نتاج الواقع العياني، إلا أنها غدت في صيغة القانون. أما الظروف الواقعية التي أوجدتها في لحظة معينة، فهي متغيرة. لقد تطورت الصناعة، وحدثت تغيرات في وضع الطبقة العاملة، وكل ذلك ينتج نصوصًا جديدة: رؤية جديدة، أي ينتج أفكارًا جديدة ليست بالضرورة هي ذات الأفكار السابقة.

وماركس هنا يقول لنا بأن النص غير مقدس، وأن الواقع هو الأساس. أما النص فمتغير رغم أن الواقع الذي في تكرار وقائعه ينتج نصوصًا تغدو قوانين (مبادئ عامة). إذن، الواقع هو الذي ينتج النصوص ويسقطها، وهو الذي يحوّلها إلى قوانين. الواقع أساس والنص متغير. هل يمكننا أن نقول ذلك؟

بالتالي يبقى من النص منهج التحليل، الذي يجب أن يتعامل مع واقع جديد.

ثالثًا: إذا انتقلنا إلى القضايا السياسية، والتي تتعلق بقضايا الأممية والقومية: حيث يحاول إنجلز في مقدماته أن يوضح طبيعة العصبة التي كُتب البيان من أجلها (أي عصبة الشيوعيين). يقول في مقدمة الطبعة الإنجليزية لعام 1888

"صدر البيان بوصفه برنامج عصبة الشيوعيين، وهي رابطة للشغيلة كانت بادئ الأمر ألمانية صرف، ومن بعد عالمية، وكانت حتمًا جمعية سرية بحكم الأوضاع السياسية في القارة قبل عام 1848" (ص 101)، ثم يضيف "ولكن هذه الجمعية التي استهدفت صراحة أن تحشد عموم البروليتاريا المناضلة في أوروبا وأميركا وتجعلها كرجل واحد، لم تستطع من الوهلة الأولة أن تجهر بالمبادئ الواردة في البيان" (ص 103). ثم يقول في مقدمة الطبعة الألمانية لعام 1890 "نشأت جمعية الشغيلة العالمية، وكان هدفها أن تصهر جميع القوى المناضلة في الطبقة العاملة الأوروبية والأميركية في جيش جرار واحد" (ص 114). وينتهي إلى القول "ففي اللحظة التي أكتب فيها هذه السطور، تستعرض البروليتاريا الأوروبية والأميركية قواها الكفاحية التي تنتظم لأول مرة في جيش واحد، وتحت علم واحد، وفي سبيل هدف مباشر واحد..) (ص 117)، ثم يقول "إن عمال العالم متحدون الآن اتحادًا حقيقيًا فعليًا" (ص 117).

هذا التصور العام ربما كان يوحي بأن الأممية هي أساس ليس النشاط العام فقط، بل أصلا هي أساس التعامل مع الوضع العالمي، مما كان يهمّش القومية، وبالتالي يعزز الفهم الذي تأسس على شعار "يا عمال العالم اتحدوا". وإذا كانت

أوروبا وأميركا قد تجاوزت المسألة القومية لأنها قد حلتها في سياق انتصار البرجوازية، وبالتالي كان الميل الأممي يتخذ شكل وحدة "تنظيمية" في العمل، فإن شعوب كثيرة لم تكن قد حلت مسألتها القومية. لهذا سيكون في غاية الأهمية تلمس الموقف الذي نجده في مقدمات إنجلز حول المسألة القومية، حيث يشير في مقدمة الطبعة البولونية لعام 1892 إلى أنه إذا كان استقلال بولونيا لهو آخر ما يهم البرجوازية "فهو ضروري لانسجام التعاون بين الأمم الأوروبية. ولا يمكن أن يظفر به غير البروليتاريا البولونية الفتية، وهو مضمون في يدها. إن استقلال بولونيا ضروري لعمال سائر أقطار أوروبا بقدر ما هو ضروري للعمال البولونيين أنفسهم" (ص 122). ويشير في مقدمة الطبعة الإيطالية لعام 1893 إلى أن ثورة 1848 حملت معها "في مجراها الوحدة والاستقلال للأمم التي كانت محرومة منهما حتى ذاك: إيطاليا وألمانيا والمجر. وستتبعها بولونيا بدورها" (ص 124). كما يتناول وضع ألمانيا وإيطاليا، حيث أنقذتهما ثورة 1848 من المحنة لأنهما كانتا أمتين أضعفهما النزاع الداخلي والسيطرة الأجنبية، وإذا كانت هاتان الأمتان الكبيرتان قد عادتا، بهذا الشكل أو ذاك، من عام 1848 إلى عام 1871، وتشكلتا في أمتين وانتهجتا نهجًا مستقلا، فلأن أولئك الذين قمعوا ثورة 1848 كانوا، مع ذلك، كما كان

يقول ماركس عادة، منفذي وصاياها رغم أنفهم" (ص 123).

ليصل إلى النقطة الأهم، حيث يقول أنه "بدون إعادة الوحدة والاستقلال لكل أمة يستحيل تحقيق اتحاد البروليتاريا من مختلف الأمم، أو تحقيق التعاون السلمي والواعي بين هذه الأمم في سبيل الأهداف المشتركة" (ص 124-125). هذا هو الأساس الذي تقوم عليه الأممية، فالوحدة والاستقلال في قلب الصراع الذي تخوضه البروليتاريا من أجل التخلص من الرأسمالية. وإنجلز كان متنبهًا هنا إلى أن البرجوازية كانت قد أصبحت غير معنية لا بالاستقلال ولا بالوحدة، ولهذا أشار إلى أن البروليتاريا هي التي باتت تحمل هذا الصليب.

رابعًا: يمكن أن نشير إلى القسم الأخير من نص البيان، والمتعلق بنقد التيارات الاشتراكية التي كانت سائدة آنئذ، وكذلك إلى الملاحظة الواردة في مقدمة الطبعة الألمانية لسنة 1872، التي تشير إلى ضرورة إكمال النقد.

ربما يجري المرور على هذا الجزء من البيان بشكل سريع، انطلاقًا من أنه "هامش تكميلي" وليس جزءًا أصيلا فيه. لكن أهميته بالنسبة لنا تنبع من الاختلاط الذي شهدناه خلال عقود خمسة، والقائم على عدم التمييز بين التيارات

"الاشتراكية" التي راجت، والذي أفضى إلى تشوه معنى الاشتراكية كما تطرحها الماركسية، من خلال رفع اشتراكية البرجوازية الصغيرة، التي تمثلت في الأحزاب القومية، ومن ثم في النظم التي أسستها، إلى مصاف الاشتراكية الماركسية.

فقد أصبح التأميم اشتراكية، والإصلاح الزراعي اشتراكية، والتخطيط المركزي اشتراكية، وحقوق العمال اشتراكية. وأصبح كل مدّعي الاشتراكية اشتراكيون. وباتت النظم التي أسستها فئات من البرجوازية الصغيرة الريفية هي نظم اشتراكية.

ما يجب أن نلتفت إليه هو هذا النقد لتيارات كانت تدعي الاشتراكية، لكنها في الواقع كانت تعبّر عن مصالح فلاحين أو برجوازية صغيرة، أو إقطاعية كما يشير البيان. ومن ثم أن نعي معنى الاشتراكية التي تطرحها الماركسية، والتي حوّلت المفهوم حولها من مفهوم طوباوي إلى علم كما يرد في كراس مهم كتبه إنجلز. والتي تقوم على نشوء الطبقة العاملة، وتبلور الجدل المادي، لكنها تقوم بالأساس على إلغاء الملكية الخاصة.

فالاشتراكية تبدأ من إلغاء الملكية الخاصة.

*****

الآن، وبعد عقود طويلة من صدور البيان، وأيضًا بعد انتصار الاشتراكية في نصف الكرة الأرضية تقريبًا ثم انهيارها، ماذا يمكن أن نقول حوله؟

أولا، لابد من الإشارة إلى أن الفكرة الرئيسية فيه لازالت صحيحة، والتي تقول بأن الأساس الاقتصادي والبنية المجتمعية التي تقوم عليه هي المحدِّد في التحليل الأخير لطبيعة الدولة والأفكار، وبالتالي إن أي بحث علمي يجب أن ينطلق من هذا الأساس لتأسيس فهم علمي للواقع المعطى. لهذا لا بد من التأكيد على أن هذه الفكرة تفرض ألا نتمسك بكل ما تأسس في عصر معيّن وكأنه راهن، بل لا بد من فهم الراهن ذاته انطلاقًا من البحث في الواقع الاقتصادي القائم الآن، والبنى الطبقية التي تقوم عليه، ومن ثم الصراعات السياسية التي يشهدها العالم.

وأن العديد من الأفكار الواردة فيه هي صحيحة، لكن هناك أفكارًا ملتبسة، وأخرى تجاوزها الزمن لأنها كانت تطرح حلولا لمشكلات هي ذاتها أصبحت من الماضي، وهذا ما قال عنه كل من ماركس وإنجلز أنها شاخت. فالرأسمالية تطورت كثيرًا، والصناعة التي كانت حينها منحصرة تقريبًا في إنجلترا قد شملت أوروبا وأميركا واليابان، وبالتالي فإن الشرح الأولي حول تشكل الرأسمالية الوارد في البيان بات بديهيًا.

وباتت كل المقترحات لتطور ألمانيا (التي لم تكن قد أصبحت رأسمالية بعد) نافلة.

ومثلا، نلحظ مسألة الالتباس في فكرة الشكل الذي يظهر في البيان للتطور التاريخي، أي: "الحر والعبد، النبيل والعامي، السيد الإقطاعي والقن، والمعلم والصانع"، الذي جرى رسم شكل ارتقائي للتاريخ على ضوئها، هو شكل: المشاع، الرق، الإقطاع، والرأسمالية، من قبل الماركسيين اللاحقين، والتي أظهر البحث التاريخي أنها ليست صحيحة، فقد أوضح البحث الأنثروبولوجي الكثير من الحقائق التاريخية التي أبانت خطأ ذلك، والتي يمكن أن توصل إلى شكل أدق. بينما كان ماركس قد اعتمد على "لقطات" من التاريخ، حينما أشار إلى هذا "الشكل الارتقائي". وكان هدفه من ذكرها هو توضيح أن التاريخ ما هو إلا أشكال ارتقاء تقوم على تتابع أنماط إنتاج، تتحدد وفق الأساس الاقتصادي الذي حكم التطور التاريخي. لقد حاول إعطاء "صورة" بناءً على بعض المعلومات دون أن يقرر أن التاريخ قد سار كذلك، ما دام لم يدرس التاريخ العالمي جيدًا.

لقد جرى التمسك "الحرفي" في بعض الأفكار، وتشويه أخرى، بينما جرى تجاوز أفكار كثيرة صحيحة فيه. وأول هذه الأفكار هي الفكرة الأساس الذي قام عليها البيان،

والتي يشرحها إنجلز في مقدماته للنص. وحتى مسألة الصراع الطبقي باتت مهملة انطلاقًا من تفسير شكلي لوضع العالم يقول بأنه قد تطور "إنسانيًا" بفعل تطور الرأسمالية ذاتها، رغم أن العالم يعود اليوم لوضع يفرض تفاقم الصراع الطبقي.

ثانيًا، إذا كان انهيار الاشتراكية قد أوحى بأن البيان قد بات من الماضي، فإن أزمة الرأسمالية التي تفجرت في سبتمبر من سنة 2008 قد فتحت الأفق من جديد للنظر إلى كتابات ماركس الاقتصادية، التي كانت تشير إلى أزمات الرأسمالية منذ زمن بعيد، وبالتالي فتحت على الصراع الطبقي الذي بدأ في البلدان العربية، وأخذ يتصاعد في بعض بلدان أوروبا، وربما يطال بلدان العالم كلها. وهو الأمر الذي يعيد الاهتمام بالبيان الشيوعي.

بالتالي، سنلمس عودة الميل إلى "اليسار" بعد عقدين من الانحدار "اليميني" ومن تعميم الليبرالية كخيار وحيد ونهائي. فقد عاد الصراع الطبقي، وليس من معبّر عنه غير ماركس والماركسية.

نحن إذن، في بداية عقد من الثورات. بداية عقد عاصف سوف يخيم عليه ليس شبح الشيوعية بل الفعل الشيوعي. وانطلاقًا من ذلك لابد من لفظ "ماركسية"

تسيدت خلال نصف قرن (منذ أواسط ثلاثينات القرن العشرين إلى انهيار الاشتراكية سنة 1991) ولازالت مستمرة في وعي معتنقيها، لأنها لم تكن ماركسية، والتأسيس لماركسية جديدة تعود إلى الأساس الذي أوجد كل هذا التراث الماركسي الثر، والذي تبلور مع ماركس خصوصًا، ونقصد الفهم المادي، أي: الجدل المادي.

*****

لأن المقدمات التي كتبت للبيان الشيوعي من قبل ماركس وإنجلز (وإنجلز خصوصًا) بذات أهمية البيان، فقد عمدنا إلى وضعها في الخاتمة بدل موقعها الذي اتخذته خلال العقود الماضية، رغم أن عديد من الطبعات قد أهملتها. حيث أنها تضيء على النص، وتضيف إليه؛ كما توضح بعض مكنوناته، وهذا ما أشرت إليه توًا. ولقد وضعنا المقدمة هذه لتوضيح أهمية البيان الشيوعي اليوم، ولتحديد التحولات التي جرت، وما ظل يحمل من الأهمية ما يفيد في فهم الواقع الحالي.

اعتمدنا ترجمة العفيف الأخضر في النص الأساسي للبيان، وترجمة عصام أمين في المقدمات، حيث لم نجد ترجمة العفيف لها.

سلامة كيلة

تمهيد

شبحٌ ينتاب أوروبا – شبح الشيوعية. ضد هذا الشبح اتحدت في حلف رهيب قوى أوروبا العجوز كلها: البابا والقيصر، مترنيخ وغيزو، الراديكاليون الفرنسيون والبوليس الألماني.

فأي حزب معارض لم يتهمه خصومه في السلطة بالشيوعية؟

وأي حزب معارض لم يرد، بدوره، تهمة الشيوعية الشائنة، إلى أقسام المعارضة الأكثر تقدمية، وإلى خصومه الرجعيين؟

ومن هذا الواقع يُستنتج أمران:

- **إن قوى أوروبا كلها أصبحت تعترف بالشيوعية كقوة.**
- **إن الشيوعيين قد آن لهم أن يعرضوا، أمام العالم كله، طرق تفكيرهم، وأهدافهم، واتجاهاتهم، وأن يواجهوا خرافة شبح الشيوعية ببيان من الحزب نفسه.**

ولهذه الغاية، اجتمع في لندن شيوعيون من مختلف القوميات، ووضعوا البيان الآتي، الذي سيصدر باللغات: الإنكليزية، والفرنسية، والألمانية، والإيطالية، والفلمنكية، والدانماركية.

الفصل الأول

برجوازيون وبروليتاريون (1)

«إن تاريخ أي مجتمع[2] حتى الآن، ليس سوى تاريخ صراعات طبقية.»

حر وعبد، نبيل وعامي، بارون وقن، معلم وصانع[3]، وبكلمة ظالمون ومظلومون، في تعارض دائم، خاضوا حربًا متواصلة، تارة معلنة وطورا مستترة، حربا كانت تنتهي في كل مرة إما بتحول ثوري للمجتمع كله، وإما بهلاك كلتا الطبقتين المتصارعتين.

وفي العهود التاريخية الأولى نجد، في كل مكان تقريبًا، تقسيما كاملا للمجتمع إلى مراتب متمايزة، (تلقى) تدرجًا متفاوتا للمنزلة المجتمعية. ففي روما القديمة، كان ثمة نبلاء، وفرسان، وعامة، وعبيد، وفي القرون الوسطى، أسياد وإقطاعيون، ومقطعون، ومعلمون وصناع، وأقنان. وإضافة إلى ذلك نجد، في كل طبقة من هذه الطبقات، تراتبية فارقة.

والمجتمع البرجوازي العصري، الذي قام على أنقاض المجتمع الإقطاعي، لم يلغ التناحرات الطبقية، بل أحل فقط محل الطبقات القديمة طبقات جديدة، وحالات اضطهاد جديدة، وأشكالا جديدة للنضال.

غير أن عصرنا، عصر البرجوازية، يتميز بتبسيطه التناحرات الطبقية. فالمجتمع كله ينقسم أكثر فأكثر إلى معسكرين كبيرين متعاديين، إلى طبقتين كبيرتين متجابهتين مباشرة: البرجوازية والبروليتاريا.

فمن أقنان القرون الوسطى تحدّر سكان أولى البلدات. ومن هؤلاء السكان تكونت الأصول الأولى للبرجوازية.

فاكتشاف أمريكا والطواف البحري حول إفريقيا أوجد للبرجوازية الناشئة مرتعا جديدا. إن سوق الهند الشرقية والصين، واستعمار أمريكا، والتبادل مع المستعمرات، وازدياد وسائل التبادل، والسّلع عموما، وفرت للتجارة والملاحة والصناعة دفعا لم يسبق له مثيل، وبالتالي وفرت نموا سريعا للعنصر الثوري في المجتمع الإقطاعي المتداعي.

ومع الأسواق الجديدة لم يعد نمط الإنتاج الإقطاعي، أو المشغل الحرفي في الصناعة، يسدُّ الحاجة المتنامية، فحلّت المانيفاتورة محل هذ النمط، وأزاح الصناعيون المتوسطون أصحاب المشاغل الحرفية، وزال تقسيم العمل بين الجمعيات الحرفية المختلفة أمام تقسيم العمل في الورشة الواحدة.

بيد أن الأسواق كانت تتسع والطلب كان يزداد باستمرار فأمست المانيفاتورة عاجزة بدورها؛ وعندئذٍ، ثوّر

البخار والآلة الإنتاج الصناعي، وحلت الصناعة الكبيرة الحديثة محل المانيفاتورة، وحل الصناعيون أصحاب الملايين، أساطين جيوش صناعة بأكملها، أي البرجوازيون العصريون، محل الصناعيين المتوسطين.

والصناعة الكبيرة أوجدت السوق العالمية التي مهد لها اكتشاف أمريكا. والسوق العالمية أنمت، بما لا يُقاس، التجارة والملاحة والمواصلات البرية. وهذا النمو أثّر بدوره في توسيع الصناعة، فبقدر ما كانت الصناعة والتجارة والملاحة والسكك الحديدية تتوسع، كانت البرجوازية تتطور، وتُنمّي رساميلها، وتدفع إلى المؤخرة بكل الطبقات الموروثة عن القرون الوسطى.

وهكذا نرى كيف أن البرجوازية العصرية نفسها، هي نتاج مسار تطور طويل، وسلسلة تحولات في نمط الإنتاج والمواصلات.

فكل مرحلة، من مراحل تطور البرجوازية تلك، كانت مشفوعة بتقدم سياسي متطابق. فالبرجوازية: فئة مقهورة تحت سيطرة الإقطاعيين، وعُصبة مسلحة تسوس نفسها بنفسها في الكمونة[4] -جمهورية مدينية مستقلة هنا، وطبقة عوام مُلزمة بدفع الضرائب للنظام الملكي هناك- وقوة موازنة

للنبالة زمن المانيفاتورة في النظام الملكي المقيّد أو المطلَق، وحجر الزاوية للأنظمة الملكية الكبيرة بوجه عام، (هذه البرجوازية) انتزعت أخيرا، بقيام الصناعة الكبيرة والسوق العالمية، السلطة السياسية كاملة في الدولة التمثيلية العصرية. وسلطة الدولة الحديثة ليست سوى هيئة تدير المصالح المشتركة للطبقة البرجوازية بأسرها.

فالبرجوازية لعبت، في التاريخ، دورا ثوريا بارزا كل البروز.

والبرجوازية حيث ظفرت بالسلطة دمرت كل العلاقات الإقطاعية من كل لون، التي كانت تربط الإنسان بسادته الطبيعيين، ولم تُبق على أية رابطة بين الإنسان والإنسان سوى رابطة المصلحة البحتة، والإلزام القاسي بـ"الدفع نقدا". وأغرقت الرعشة القدسية للورع الديني، والحماسة الفروسية، وعاطفة البرجوازية الصغيرة، في أغراضها الأنانية المجرّدة من العاطفة، وحولت الكرامة الشخصية إلى قيمة تبادلية، وأحلّت حرية التجارة الغاشمة وحدها، محل الحريات المثبّتة والمكتسبة التي لا تحصى. وبكلمة أحلّت استغلالا مباحًا وقحًا مباشرًا وشرسًا، محل الاستغلال المغلّف بأوهام دينية.

فالبرجوازية جرّدت كل الفعاليات، التي كان يُنظر إليها حتى ذلك الحين بمنظار الهيبة والخشوع، من هالتها. فحوّلت

الطبيب ورجل القانون والكاهن والشاعر والعالم، إلى أجراء في خدمتها.

والبرجوازية نزعت حجاب العاطفية عن العلاقات العائلية وقصَرتها على علاقات مالية بحتة.

والبرجوازية كشفت كيف أنّ عرض القوة الشرسة، الذي كانت الرجعية تُعجَب به في القرون الوسطى، قد وجد تتمّته المؤاتية في التكاسل إلى أبعد حدود الكسل. فهي الأولى، التي بيّنت ما يستطيع النشاط الإنساني إتيانه. فأتت بعجائب تختلف كليا عن أهرامات مصر، والأقنية الرومانية، والكتدرائيات القوطية، وقامت بحملات تختلف كليا عن الإجتياحات والحملات الصليبية.

والبرجوازية لا تستطيع البقاء بدون أن تُثوِّر باستمرار أدوات الإنتاج، وبالتالي علاقات الإنتاج المجتمعية. بخلاف ذلك، كان الحفاظ على نمط الإنتاج القديم، بدون تبديل، الشرط الأول لبقاء كل الطبقات الصناعية السالفة. وهذا الإنقلاب المتواصل في الإنتاج، وهذا التزعزع الدائم في كل الأوضاع المجتمعية، والقلق والتحرك الدائمان، هذا كله يميّز عصر البرجوازية عمّا سبقه من عصور. فالعلاقات الجامدة الصدِئة مع ما يستتبعها من تصوُّرات وأفكار قديمة موقّرة،

تتفكك كلها، وكل جديد ينشأ يهرم قبل أن يصلُب عوده، والتقسيم الفئوي القائم يتبدد هباء، وكل ما هو مقدّس يدنّس، والناس يُجبرون في النهاية على التفرّس في وضعهم المعيشي، وفي علاقاتهم المتبادلة بأعين بصيرة.

وحاجة البرجوازية إلى تصريف دائم لمنتجاتها، متسع باستمرار، تسوقها إلى كل أرجاء الكرة الأرضية. فلا بد لها من أن تُعشعش في كل مكان، ومن أن تنغرز في كل مكان، ومن أن تقيم علاقات في كل مكان.

والبرجوازية، باستثمارها السوق العالمية، طبَعت الإنتاج والاستهلاك، في جميع البلدان، بطابع كوسموبوليتي، وانتزعت من تحت أقدام الصناعة أرضيتها القومية وسط غم الرجعيين الشديد. فالصناعات القومية الهرمة دُمّرت وتدمَّر يوميا لتحل محلها صناعات جديدة؛ أصبح اعتمادها مسألة حيوية بالنسبة إلى جميع الأمم المتحضرة، صناعات لم تعد تستعمل المواد الأولية المحلية، بل المواد الأولية من أقصى المناطق، صناعات لا تُستهلك منتجاتها في البلد نفسه فحسب، بل أيضا في جميع أنحاء العالم. فمكان الحاجات القديمة، التي كانت المنتجات المحلية تسدُّها، تحُل حاجات جديدة تتطلب لإشباعها منتجات أقصى البلدان والأقاليم. ومحل الاكتفاء الذاتي الإقليمي والقومي والانعزال القديم، تقوم علاقات شاملة في كل النواحي، وتقوم تبعية متبادلة شاملة بين الأمم. وما ينطبق على

الإنتاج المادي ينطبق أيضا على النتاج الفكري. فالنتاجات الفكرية لكل أمة على حدة تصبح ملكا مشتركا. والتعصب والتقوقع القوميّان يُصبحان مستحيلين أكثر فأكثر. ومن الآداب القومية والإقليمية ينشأ أدب عالميّ.

والبرجوازية، بالتحسين السريع لكل أدوات الإنتاج، وبالتسهيل اللامتناهي لوسائل المواصلات، تشدّ الكل حتى الأمم الأكثر تخلفا إلى الحضارة. والأسعار الرخيصة لسلعها هي المدفعية الثقيلة التي تدك بها الأسوار الصينية كلها، وترغم البرابرة الأكثر حقدا وتعنتا تجاه الأجانب على الإستسلام، وتجبر كل الأمم، إذا شاءت إنقاذ نفسها من الهلاك، على تبنّي نمط الإنتاج البرجوازي، وترغمها على تقبّل الحضارة المزعومة، أي على أن تصبح برجوازية. وبكلمة هي تخلق عالما على صورتها.

والبرجوازية أخضعت الريف لسيطرة المدينة. وأنشأت مدنا ضخمة، وزادت بدرجة هائلة عدد سكان المدن إزاء سكان الريف، منتزعة بذلك قسما كبيرا من السكان من سذاجة الحياة الريفية، ومثلما أخضعت الريف للمدينة، والبلدان الهمجية وشبه الهمجية للبلدان المتحضرة، أخضعت الشعوب الفلاحية للشعوب البرجوازية، والشرق للغرب.

والبرجوازية تقضي، أكثر فأكثر، على تشتت وسائل الإنتاج

والملكية والسكان. وقد حشرت السكان، ومركزت وسائل الإنتاج، وركزت الملكية في أيد قليلة. فكانت المركزية السياسية، النتيجة الحتمية لذلك. فإنّ مقاطعات مستقلة، تكاد تكون متّحدة لها مصالح وقوانين وحكومات وجمارك مختلفة، حشرت في أُمة واحدة، ذات حكومة واحدة، وقانون واحد، ومصلحة قومية طبقية واحدة، وسياسة جمركية واحدة.

فالبرجوازية، في غضون سيطرتها الطبقية التي لم يكد يمضي عليها قرن من الزمن، خلقت قوى منتجة تفوق بعددها وضخامتها ما أوجدته الأجيال السابقة كلّها مجتمعة. فالآلة، وإخضاع قوى الطبيعة، واستخدام الكيمياء في الصناعة والزراعة، والملاحة البخارية، وسكك الحديد، والتلغراف الكهربائي، واستصلاح أراضي قارّات بأكملها، وتسوية مجاري الأنهار لجعلها صالحة للملاحة، وبروز عوامر كاملة من الأرض – أيّ عصر سالف كان يتصوّر أنّ مثل هذه القوى المنتجة كانت تهجع في صميم العمل المجتمعيّ؟

إذن لقد رأينا: أنّ وسائل الإنتاج والتبادل، التي ابتنت البرجوازية على أساسها قد استُحدثت في المجتمع الإقطاعي. وعند درجة معينة من تقدّم وسائل الإنتاج والتبادل، لم تعد الشروط التي كان المجتمع الإقطاعي ينتج فيها ويبادل، لم يعد التنظيم الإقطاعي للزراعة والمانيفاتورة، بكلمة لم تعد علاقات

الملكية الإقطاعية تتلاءم مع القوى المنتجة في تمام نموّها. فكانت تُعيق الإنتاج بدلا من دفعه نحو التقدّم، ولذا تحولت إلى قيود كان لا بُدّ من تحطيمها وقد حُطّمت.

ومحلها حلت المزاحمة الحرة، مع هيكلية مجتمعية وسياسية ملائمة، مع السيطرة الاقتصادية والسياسية لطبقة البرجوازيين.

واليوم نشهد حركة مماثلة. فإنّ علاقات الإنتاج والتبادل البرجوازية، وعلاقات الملكية البرجوازية – إن هذا المجتمع البرجوازي الحديث الذي أبدع كما في السّحر وسائل الإنتاج والتبادل الضخمة، يُشبه المشعوذ الذي فقد سيطرته على التحكّم بالقوى الجهنمية التي استحضرها – فمنذ عشرات السنين، ليس تاريخ الصناعة والتجارة سوى تاريخ تمرُّد القوى المنتجة الحديثة على علاقات الإنتاج الحديثة، على علاقات الملكية، قوام حياة البرجوازية وسيطرتها. ويكفي ذكر الأزمات التجارية الدورية، التي تهدد أكثر فأكثر وجود المجتمع البرجوازي بأسره. ففي الأزمات التجارية، لا يُتلَف بانتظام جزء كبير من المنتجات فحسب، بل يُتلَف أيضا قسم من القوى المنتجة القائمة. وفي الأزمات يتفشّى وباء مجتمعيّ ما كان ليبدو، في كل العصور السالفة، إلاّ مستحيلا، وهو وباء فائض الإنتاج. فإن المجتمع يجد نفسه فجأة وقد رُدّ إلى وضع

من الهمجية المؤقتة، حتى ليُخيَّل أنّ مجاعة وحرب إبادة شاملة قد قطعتاه عن وسائل العيش؛ فتبدو الصناعة والتجارة وكأنهما أثر بعد عين، ولماذا؟ لأن المجتمع يملك المزيد من الحضارة، والمزيد من وسائل لعيش، والمزيد من الصناعة، والمزيد من التجارة. ولم تعد القوى المنتجة، الموجودة تحت تصرّف المجتمع، تدفع بنمو علاقات الملكية البرجوازية قُدُما، بل بخلاف ذلك، أصبحت أقوى جدا من هذه العلاقات التي باتت تعيقها؛ وكلما تغلبت على هذا العائق جرّت المجتمع البرجوازي بأسره إلى الفوضى، وهددت وجود الملكية البرجوازية. فالعلاقات البرجوازية غدت أضيق من أن تستوعب الثروة، التي تُحدثها. فكيف تتغلب البرجوازية على هذه الأزمات؟ من جهة بتدمير كتلة من القوى المنتجة بالعنف، ومن جهة أخرى بغزو أسواق جديدة، وباستثمار الأسواق القديمة كليًا. وما هي عاقبة هذا الأمر؟ الإعداد لأزمات أشمل وأشدّ والتقليل من وسائل تداركها.

فالأسلحة، التي صرَعت بها البرجوازية الإقطاع، ترتد الآن على البرجوازية نفسها.

بَيْد أنّ البرجوازية لم تصنع، فحسب، الأسلحة التي تؤدي بحياتها، بل أنجبت أيضا الرجال الذين سيستعملون هذه الأسلحة: العمال العصريين أو البروليتاريين.

وبقدر ما تنمو البرجوازية أي رأس المال، تنمو أيضا البروليتاريا، أي طبقة العمال العصريين، الذين لا يعيشون إلا إذا وجدوا عملا. ولا يجدون عملا إلا إذا كان عملهم ينمي رأس المال. وهؤلاء العمال المكرهون على بيع أنفسهم قطعة قطعة هم سلعة كأي صنف تجاري آخر، ولذا هم معرّضون لكل صروف المزاحمة، ولكل تقلبات السوق.

ومن جراء توسع استعمال الآلة، وتقسيم العمل، فقد عمل البروليتاريين كليا طابع استقلاله الذاتي، وبالتالي فقد كل جاذبية بالنسبة إلى العمال. فالعامل أصبح مجرّد مُلحق بالآلة، لا يُطلب منه سوى الحركة اليدوية الأكثر بساطة ورتابة وسهولة وامتهان. ومن ثم، فإن ما يُكلفه العامل يكاد يقتصر على كلفة ما يلزمه للعيش، ولمواصلة نسله. وبالتالي فإنّ ثمن العامل شأن ثمن كل سلعة يُساوي كلفة إنتاجه. إذن، كلما أصبح العمل منفرا، تدنى الأجر. وفضلا عن ذلك، بقدر ما يتسع استعمال الآلة وتقسيم العمل، تشتد أيضا وطأة العمل، سواء من جرّاء زيادة ساعات العمل، أو مُضاعفة العمل المطلوب إنجازه في وقت معيّن أو تسريع حركة الآلة، الخ..

والصناعة الحديثة حوّلت المشغل الصغير للمعلّم الحرفي البطريكي إلى فبركة كبيرة للرأسمالي الصناعي. وجموع العمال

المحشورة في الفبركة تنظَّم تنظيما عسكريا. فالعمّال، جنود الصناعة البسطاء، يُوضعون تحت رقابة تراتبية كاملة، من ضبّاط و صفّ ضبّاط. وهم ليسو عبيد طبقة البرجوازيين ودولة البرجوازيين فحسب، بل هم أيضا، في كل يوم وكل ساعة، عبيد للآلة، ولمراقب العمل، وخصوصا للبرجوازي صاحب الفبركة نفسه، وهذا الإستبداد، كلما أعلن بمزيد من الصراحة أنّ الكسب هو هدفه، إزداد دناءة وبشاعة وقسوة.

والعمل اليدوي كلما تطلب قدرا أقل من المهارة والقسوة، أي كلما تقدمت الصناعة الحديثة، ازداد إحلال عمل النساء محلّ عمل الرجال. فالفروق في الجنس والسن لم يعد لها شأن مجتمعيّ بالنسبة إلى الطبقة العاملة، لم يعد هناك سوى أدوات عمل تختلف كلفتها باختلاف السن والجنس.

والعامل، ما أن يستغلّه صاحب العمل، وما أن يدفع له أجره، حتى تنقضّ عليه القطاعات الأخرى من البرجوازية: مالك البيت والبقّال والمرتهن إلخ..

والمراتب الدنيا للطبقات الوسطى، التي كانت قائمة حتى الآن –صغار الصناعيين والتجار وأصحاب الرّيع والحرفيون والفلاحون– تصبّ في البروليتاريا لأن رأسمالها

الصغير لا يكفي لتشغيل الصناعة الكبيرة، فتهلك في مزاحمة كبار الرأسماليين، من جهة، ومن جهة أخرى، لأن الطرائق الجديدة للإنتاج تحطّ من قيمة مهارتها، وهكذا تتكون البروليتاريا من جميع طبقات السكان.

والبروليتاريا تمرّ بدرجات تطور مختلفة. ونضالها ضد البرجوازية يبدأ مع وجودها نفسه.

ففي البدء يناضل العمال فُرادى، ثم يناضل عمال فبركة واحدة، ثم عمال فرع صناعي في منطقة واحدة، ضد البرجوازي الفرد الذي يستغلهم مباشرة. وهم لا يوجّهون هجماتهم إلى علاقات الإنتاج البرجوازية فحسب، بل أيضا إلى أدوات الإنتاج نفسها، فيتلفون السلع الأجنبية المضاربة، ويُحطِّمون الماكينات، ويُضرمون النار في الفبارك، ويَسعون إلى استعادة الموقع المفقود، موقع الصانع في القرون الوسطى.

وفي هذا التطور يُشكّل العمال جموعا مبعثرة في البلاد كلها تُشتتها المزاحمة. فتآزر العمال الواسع–الجماهيري، ليس بعدُ نتيجة اتّحادهم الذاتي، بل هو نتيجة اتّحاد البرجوازية التي عليها، لبلوغ أغراضها السياسية الخاصة، أن تحرّك البروليتاريا بأسرها طالما هي قادرة على ذلك. والحالة هذه فإنّ البروليتاريين في هذا الطور لا يحاربون أعداءهم، بل أعداء

أعدائهم، أي بقايا الحكم الملكي المطلق، والملاكين العقاريين، والبرجوازيين غير الصناعيين والبرجوازيين الصغار. وهكذا تتركز الحركة التاريخية كلها في أيدي البرجوازية، وكل انتصار يتحقق على هذا النحو هو انتصار للبرجوازية.

لكن مع تقدم الصناعة لا تتسع البروليتاريا فحسب، بل تحتشد في حشود أكثر ضخامة وتنمو قوّتها، وتعي هي هذه القوة وعيا أفضل. فالمصالح والأوضاع المعيشية داخل البروليتاريا تتماثل باطراد، بقدر ما تمحو الآلة الفوارق في العمل، وتنخفض الأجرة، في كل مكان تقريبا، إلى مستوى مُتماثل في الإنخفاض. فإن المضاربة المتعاظمة بين البرجوازيين أنفسهم، والأزمات التجارية الناتجة عنها، تجعل أجور العمال أكثر تقلبا باستمرار؛ والتحسين المتسارع المتنامي، والمتواصل للآلة، يزعزع باستمرار الوضع المعيشي للعمال؛ والمصادمات بين العامل الفرد والبرجوازي الفرد، تتّخذ أكثر فأكثر طابع مُصادمات بين طبقتين. وعندئذ يبدأ العمّال في تأليف اتحادات نقابية ضد البرجوازيين؛ ويتكاتفون للحفاظ على أجر عملهم، ويؤلّفون جمعيات دائمة للتموّن تحسّبًا لانتفاضات مُحتملة. وهنا وهناك، ينفجر النضال شغْبا.

ومن وقت إلى آخر ينتصر العمال لكن انتصارهم هو إلى حين. والنتيجة الحقة لنضالاتهم ليست في النجاح المباشر

بل في اتّحاد العمل المتعاظم باستمرار. وهذا الاتحاد يعززه نمو وسائل المواصلات التي تبتدعها الصناعة الكبرى، والتي تربط بين عمّال مختلف النواحي. والحال لا بُدّ من الرابط لجعل النضالات المحليّة والمتعددة، ذات الطابع الواحد في كل مكان، تتمركز في نضال وطني، في نضال طبقيّ. غير أنّ كل نضال طبقي هو نضال سياسي. والاتحاد الذي اقتضى سكان بلدان القرون الوسطى قرونا لتحقيقه، نظرا إلى طُرقاتهم البدائية، تحقّقه البروليتاريا العصرية في سنوات قليلة بفضل السكك الحديدية.

وانتظام البروليتاريين في طبقة، وبالتالي في حزب سياسي، تنسفه مجددا وفي كل لحظة المزاحمة بين العمال أنفسهم؛ لكنه ينهض مرارا وتكرارا أقوى وأمتن وأشدّ بأسا، ويستفيد من الانقسامات في صفوف البرجوازية، فينتزع الاعتراف على وجه قانوني ببعض مصالح العمال، مثل قانون العمل عشر ساعات (يوميا) في انكلترا.

وعمومًا فإنّ صدامات المجتمع القديم تدفع بطرق شتى بتطور البروليتاريا قدُمًا. فالبرجوازية تعيش في صراع دائم: في البدء، ضدّ الأرستقراطية، ثم ضدّ تلك الأقسام من البرجوازية نفسها، التي تتناقض مصالحها مع تَقدُّم الصناعة، ثم بصورة دائمة ضدّ برجوازية جميع البلدان الأجنبية. وفي كل هذه

الصراعات تجد البرجوازية نفسها مضطرة إلى الاستنجاد بالبروليتاريا، وطلب معونتها، وبذلك تجرّها إلى المعترك السياسي. وهكذا فإنّ البرجوازية نفسها هي التي تزوّد البروليتاريا بعناصرها التثقيفية أي بالأسلحة التي ترتدّ عليها.

وإضافة إلى ذلك وكما رأينا قبلاً، فإن أقسامًا بكاملها من الطبقة السائدة تنحدر، بفعل تقدُّم الصناعة، إلى البروليتاريا، أو تتهدد على الأقل بأوضاعها المعيشية. وهذه الأقسام تمدّ البروليتاريا أيضًا بطائفة من العناصر التثقيفية.

وأخيرا، عندما يقترب الصراع الطبقي من الحسم، تتخذ عملية التفسّخ داخل الطبقة السائدة، وداخل المجتمع القديم بأسره، طابعًا عنيفًا وحادًا، إلى حد أنّ قسمًا صغيرًا من الطبقة السائدة يَنسلخ عنها وينضمّ إلى الطبقة الثورية، إلى الطبقة التي تحمل بين يديها المستقبل. ومثلما انتقل في الماضي قسم من النبلاء إلى البرجوازية، ينتقل الآن قسم من البرجوازية إلى البروليتاريا، لا سيما هذا القسم من الإيديولوجيين البرجوازيين، الذين ارتفعوا إلى مستوى الفَهم النظري لمجمل الحركة التاريخية.

ومن بين جميع الطبقات، التي تُناهض البرجوازية اليوم، فإنّ البروليتاريا وحدها هي الطبقة الثورية حقا. فالطبقات

الأخرى تنهار وتتلاشى أمام الصناعة الكبيرة، والبروليتاريا هي نِتاجُها الخاص.

والطبقات الوسطى -الصناعي الصغير والتاجر الصغير والحِرَفيّ الصغير والفلاّح الصغير- كلها تحارب البرجوازية للحفاظ على وجودها كطبقات وسطى من التلاشي. فهي إذن ليست ثورية بل مُحافظة، وفضلاً عن ذلك، إنها رجعية تسعى إلى جعل عَجَلة التاريخ ترجع القهقرى. وإذا وقع لها أن تكون ثوريّة فذلك نظرًا إلى انتقالها الوشيك الوقوع، إلى البروليتاريا، وهي بذلك لا تدافع عن مصالحها الراهنة، بل عن مصالحها المقبلة، فتتخلى عن موقعها الخاص، لتتبنّى وجهة نظر البروليتاريا.

أما اللومبنبروليتريا Lumpenproletariat (دون، أو تحت البروليتاريا)، هذا النتن المستسلم، حثالة الفئات الدنيا من المجتمع القديم، فإنها قد تنجرف هنا وهناك في الحركة بفعل ثورة بروليتارية، لكنها بحكم وضعها الحياتي كله تصبح أكثر استعدادًا لبيع نفسها لمكائد الرجعية.

ففي شروط حياة البروليتاريا تمّ تقويض شروط حياة المجتمع القديم. فالبروليتاري لا ملكيّة له، وعلاقته بالزوجة والأطفال لم يبق جامع يجمعها بعلاقات الأسرة البرجوازية؛

والعمل الصناعي الحديث والاستذلال الحديث، في ظل رأس المال، جرّداه سواء في إنكلترا أو في فرنسا، وفي أميركا أو في ألمانيا، من كل طابع قومي؛ والقوانين والأخلاق والدين هي والأحكام البرجوازية المغرضة الكثيرة، سواسية بالنسبة إليه، تتستر وراءها مصالح برجوازية كثيرة.

فالطبقات السالفة كلها، التي استولت على السلطة، كانت تسعى إلى توطيد مركزها المكتسب بإخضاعها المجتمع بأسره لشروط كسبها. والبروليتاريون لا يستطيعون الاستيلاء على القوى المجتمعية المنتجة، إلاّ بإلغاء النمط السالف الخاص بهم لامتلاك المال، وبالتالي بالقضاء على كل نمط للامتلاك قائم حتى الآن. والبروليتاريون لا يملكون شيئا يحافضون عليه، وعليهم أن يقوضوا كل الضمانات الخاصّة، وكل الحمايات الخاصّة، والقائمة حتى الآن.

فحتى الآن كانت الحركات كلها إمّا حركات أقليات، وإمّا لمصلحة الأقليات. والحركة البروليتارية، هي الحركة القائمة بذاتها، للأغلبية الساحقة، في سبيل الأغلبية الساحقة. والبروليتاريا، الفئة الدنيا في المجتمع الراهن، لا يمكنها أن تنهض وتنتصب، بدون أن تنسف البنية الفوقية كلها للفئات التي تؤلّف المجتمع الرسمي.

ومع أنّ نضال البروليتاري ضد البرجوازية ليس قوميا في محتواه، فإنه يتّخذ في البداية الشكل القومي، ولا حاجة إلى القول إنّ على البروليتاريا في كل بلد أن تتخلص من برجوازيتها الخاصة.

وبإجمالنا أطوار نمو البروليتاريا في خطوطها الكبرى، تتبّعنا أيضا الحروب الأهلية الكامنة تقريبا داخل المجتمع القائم، حتى الحين الذي تنفجر فيه هذه الحروب ثورة علنيّة، تُرسي البروليتاريا سيطرتها بإطاحة البرجوازية بالعنف.

وقد رأينا أنّ كل مجتمع حتى الآن قام على التناحر بين الطبقات العسفية والطبقات المضطهَدَة. وللتمكن من اضطهاد طبقة ينبغي أن تؤمّن لها شروط معيشية تمكنها، على الأقل، من مواصلة وجودها العبودي. فالقنّ، في عهد القنانة توصّل إلى أن يغدو عضوا في كمونة، وكذلك ارتفع البرجوازي الصغير إلى برجوازي تحت نير الحكم الإقطاعي الاستبدادي. بخلاف ذلك، فإنّ العامل العصري، بدلا من أن يرتفع مع تقدّم الصناعة، لا ينفك ينحط عميقا دون أوضاع طبقته نفسها. فالعامل يغدو مدقعا، والعَوَز يزداد بسرعة تفوق سرعة نُمو السكان والثروة. وبناءً عليه يتضح أن البرجوازية عاجزة عن أن تبقى زمنا أطول الطبقة السائدة، وأن تَفرض على المجتمع شروط وجود طبقتها كقانون أعلى.

فهي عاجزة عن أن تسيطر، لأنها عاجزة عن تأمين عيش عبدها، حتى في إطار عبوديته، لأنها مرغمة على تركه ينحطّ إلى وضع يُلزمها بأن تُعيله، بدلا من أن يُعيلها. فالمجتمع لم يعد يستطيع أن يحيا تحت سيطرتها، أو بعبارة أخرى، لم يعد وجود البرجوازية يلائم المجتمع.

فالشرط الأساسي لوجود الطبقة البرجوازية ولسيطرتها، هو تكديس الثروة في أيدي خواص، تكوين الرأسمال وإنماؤه. وشرط وجود الرأسمال هو العمل المأجور. والعمل المأجور يقوم، حصرا، على المزاحمة بين العمّال. وتقدّم الصناعة، الذي تُشكّل البرجوازية دعامته بلا إرادة منها وبلا مقاومة، يُحِلّ وحدة العمّال الثورية عبر الترابط محل انفرادهم الناتج عن تزاحُمهم. وهكذا فإنّ تطور الصناعة الكبيرة يزلزل تحت أقدام البرجوازية، الأساس الذي تُنتج عليه وتتملّك المنتجات. إنّ البرجوازية تُنتج، قبل كل شيء، حفّاري قبرها. فانهيارها وانتصار البروليتاريا، أمران حتميّان.

هوامش:

(1) نعني بالبرجوازية طبقة الرأسماليين العصريين، مالكي وسائل الإنتاج المجتمعي، الذين يستخدمون العمل المأجور. و نعني بالبروليتاريا طبقة العمال الأجراء العصريين، الذين يُضطرون، لعدم

امتلاكهم وسائل إنتاج، إلى بيع قوة عملهم ليتمكنوا من العيش (ملاحظة إنجلس للطبعة الإنكليزية عام 1888).

(2) ضبطا، التاريخ المكتوب المتوارث. ففي عام 1847. كان تاريخ النظام المجتمعي، الذي سبق التاريخ المكتوب كله، أي غير التاريخي، مجهولا تقريبا. ومنذ ذلك الحين (منذ عام 1847)، إكتشف هاكستهاوزن الملكية العامة للأرض في روسيا، وبرهن ماورر على أن هذه الملكية كانت الأساس المجتمعي الذي خرجت منه تاريخيا جميع القبائل الألمانية، ثم تبين تدريجيا أن المشاعية الريفية، مع الملكية الجماعية للأرض، كانت الشكل البدائي للمجتمع، من الهند إلى ايرلندا، وأخيرا تم الكشف عن البنية الداخلية لهذا المجتمع الشيوعي البدائي، بشكلها المميز، من خلال الإكتشاف المجيد لمورغان: إكتشاف الطبيعة الحقّة للعشيرة (BENS) وموقعها في القبيلة. وبانحلال هذا المتّحد البدائي يبدأ انقسام المجتمع إلى طبقات متمايزة تصبح، في النهاية متعارضة (ملاحظة إنجلس للطبعة الإنكليزية 1888، والطبعة الألمانية 1890). وقد حاولت تتبّع عملية الإنحلال في مؤلفي "أصل العائلة، والملكية الخاصة والدولة". الطبعة الثانية، شتوتغارت (ملاحظة إنجلس للطبعة الإنكليزية 1888).

(3) المعلّم عضو كامل الحقوق في الحرفة، معلّم في داخل المشغل، لا رئيسه (ملاحظة إنجلس للطبعة الإنكليزية 1888).

(4) تحت إسم الكمونات كان يُشار إلى المدن، التي كانت تنشأ في فرنسا، حتى قبل أن تنتزع، من أسيادها الإقطاعيين، الإدارة

المحلية الذاتية والحقوق السياسية لطبقة العوام. وبوجه عام، تظهر إنكلترا، هنا، كنموذج للتطور الإقتصادي للبرجوازية، وتظهر فرنسا كنموذج لتطورها السياسي (ملاحظة إنجلس للطبعة الإنكليزية 1888).

الفصل الثاني

بروليتاريون وشيوعيون

ما هي علاقة الشيوعيين بالبروليتاريين عموما؟

إنّ الشيوعيين ليسوا حزبا منفصلا في مواجهة الأحزاب العمالية الاخرى وليست لهم مصالح منفصلة عن مصالح عموم البروليتاريا.

وهم لا يطرحون مبادئ خاصة يريدون قَولَبَة الحركة البروليتارية بقالبها.

إن الشيوعيين لا يتميزون عن الأحزاب البروليتارية الأخرى إلاّ في أنّهم: من ناحية، يُبرزون ويُغلّبون المصالح المشتركة في الصراعات القومية المختلفة للبروليتاريين، بصرف النظر عن تابعية عموم البروليتاريا، ومن ناحية أخرى، يمثّلون دائما مصلحة مُجمل الحركة في مختلف أطوار التطور، التي يمر بها الصراع بين البروليتاريا والبرجوازية.

إذن الشيوعيون عمليًا هم الفريق الأكثر حزمًا من الأحزاب العمالية في جميع البلدان، والدافع دومًا إلى الأمام، ونظريًا هم متميزون عن سائر جُموع البروليتاريا، بالتبصّر في وضع الحركة البروليتارية، وفي مسيرتها ونتائجها العامّة.

والهدف الأول للشيوعيين هو الهدف نفسه لكل الأحزاب البروليتارية الأخرى: تشكّل البروليتاريا في طبقة، إسقاط هيمنة البرجوازية، واستيلاء البروليتاريا على السّلطة السياسية.

وطروحات الشيوعيين النظرية لا تقوم قطعا على أفكار، على مبادئ، ابتكرها أو اكتشفها هذا أو ذاك من مُصلحي العالم.

إنّها فقط تعبير عام عن الشروط الحقيقية لصراع طبقيّ قائم، عن حركة تاريخية تجري أمام أعيننا. وإلغاء علاقات الملكية القائمة حتى الآن، ليس هو إطلاقا السّمة المميزة للشيوعية.

فعلاقات الملكية كلها، كانت خاضعة لتغيّر تاريخي مستمر لتحول تاريخي مُتواصل. فالثورة الفرنسية، مثلاً، قضت على الملكية الإقطاعية لمصلحة الملكية البرجوازية.

وإنّ ما يميّز الشيوعية، ليس القضاء على الملكية بشكل عام، بل إلغاء الملكية البرجوازية.

غير أن الملكية الخاصة للبرجوازية العصرية هي آخر تعبير وأكمله عن الإنتاج وتملّك المنتجات القائم على التناحرات الطبقية، وعلى استغلال البعض للبعض الآخر.

والحالة هذه يستطيع الشيوعيون أن يلخّصوا نظريتهم بعبارة وحيدة: إلغاء الملكية الخاصة.

ونحن الشيوعيون، أُخذ علينا أنّنا نريد إلغاء الملكية المكتسبة شخصيا بجهد فردي، هذه الملكية التي تشكّل، كما يُزعم، أساس كل حرية شخصية وكل فعالية وكل استقلال فردي.

ملكية مكتسبة بالجهد والاستحقاق الشخصيين! فهل تتحدثون عن الملكية البرجوازية الصغيرة، والفلاحية الصغيرة، التي سبقت الملكية البرجوازية؟ إننا لسنا بحاجة إلى إلغائها. فإنّ تطور الصناعة قضى ويقضي عليها يوميا.

أم أنكم تتحدثون عن الملكية الخاصة للبرجوازية الحديثة؟

ولكن، هل يخلق العمل المأجور، أيْ عمل البروليتاري، ملكية له؟ قطعا لا. إنه يخلق رأس المال أي الملكية التي تستغل العمل المأجور، والتي لا يسعها أن تنمو إلاّ شرط أن تنتج عملاً مأجورًا جديدًا، لتستغلّه مرة ثانية.

فالملكية، في شكلها الحاليّ، تتحرك في التناقض بين رأس المال والعمل المأجور. فلنمعن النظر في طرفي هذا التناقض.

إنّ كون المرء رأسماليًا لا يعني أنه يشغل مركزًا شخصيًا فحسب. بل يشغل أيضًا مركزًا مجتمعيًا في الإنتاج. فرأس المال هو نتاج جماعي، لا يمكن تحريكه إلا بنشاط مشترك لأعضاء كثيرين، بل إنه، في التحليل الأخير، لا يحرَّك إلاّ بالنشاط المشترك لجميع أعضاء المجتمع.

فرأس المال إذن ليس فاعليّة شخصية، بل فاعليّة مجتمعية.

ومن ثم، إذا تحوّل رأس المال إلى ملكية مشتركة تخص جميع أعضاء المجتمع، فلا يكون معنى ذلك أن ثمة ملكية شخصية قد تحولت إلى ملكية اجتماعية، بل كل ما هنالك أن الصيغة الاجتماعية للملكية تكون قد تغيرت، (أي) أنّ الملكية تفقد طابعها الطبقي.

ولننتقل إلى العمل المأجور: فإن الثمن الوسط للعمل المأجور هو الحدّ الأدنى لأجر العمل، أي جملة وسائل العيش الضرورية لبقاء العامل كعامل على قيد الحياة. ومن ثم، فإنّ ما يتملكه العامل المأجور بجهده يكفي فقط لإعادة إنتاج حياته.

ونحن لا نريد، على الإطلاق، إلغاء هذا التملك الشخصي لمنتجات العمل من أجل إعادة إنتاج الحياة

الشخصية، فهذا التملّك لا يترك حاصلا (ربحا) صافيا يخوّل السيطرة على عمل الغير. نحن نريد فقط إلغاء الطابع المقيت لهذا التملك، الذي لا يحيا فيه العامل إلاّ لتنمية رأس المال، ولا يحيا إلاّ بالقدر الذي تتطلبه مصلحة الطبقة السائدة.

فالعمل الحرّ، في المجتمع البرجوازي، ليس سوى وسيلة لزيادة العمل المتراكم، والعمل المتراكم، في المجتمع الشيوعي، ليس سوى وسيلة لتوسيع السيرورة الحياتية للعمال، ولإغنائها وترقيتها.

ففي المجتمع البرجوازي إذن يتسلط الماضي على الحاضر، وفي المجتمع الشيوعي يتسلط الحاضر على الماضي. وفي المجتمع البرجوازي رأس المال مستقل وله ذاتية مميزة، في حين أن الفرد الفاعل لا استقلال له، ولا ذاتية مميزة.

وإلغاء هذا الوضع تسمّيه البرجوازية إلغاء الشخصية الفردية والحرية! وهي على حق. فإنّ الأمر يتعلق فعلا بإلغاء فردانية البرجوازي واستقلاله وحريته.

وفي نطاق علاقات الإنتاج البرجوازية الراهنة يُقصد بالحرية: التجارة الحرّة، والبيع الحرّ، والشراء الحرّ.

ولكن إذا انتفى الإتجار الجشع انتفى أيضا الإتجار الحرّ. فالتبجحات بالإتجار الحرّ، شأن كل التبجّحات الأخرى

لبرجوازيتنا حول الحرية، لا معنى لها إلاّ بالمقابلة بالإتجار المقيّد، وبالمقابلة بالبرجوازي المستعبَد في القرون الوسطى، ولا معنى لها إطلاقا بالمقابلة بالإلغاء الشيوعي للإتجار، ولعلاقات الإنتاج البرجوازية، وللبرجوازية نفسها.

لقد أصِبتم بالذعر لأنّنا نريد إلغاء الملكية الخاصة. ولكن الملكية الخاصة، في مجتمعكم الراهن، مُلغاة بالنسبة إلى تسعة أعشار أعضائه. إنّها ضبطا موجودة لأنها غير موجودة بالنسبة إلى الأعشار التسعة. فأنتم إذن تلوموننا لأننا نريد إلغاء ملكية تفرض، كشرط ضروري لوجودها، إنعدام الملكية بالنسبة إلى الأغلبية الساحقة من المجتمع.

وبكلمة، فإنكم تتهموننا بأننا نريد إلغاء ملكيتكم، وهذا بالتأكيد ما نريده.

وما أن يتعذر على العمل أن يتحول إلى رأس مال، إلى نقد، إلى ريع عقاري، وباختصار إلى سلطة مجتمعية قادرة على الاحتكار، أي في اللحظة التي لا تبقى فيها الملكية الشخصية قادرة على أن تتحول إلى ملكية برجوازية، في هذه اللحظة بالذات تعلنون أنّ الفرد قد أُزيل.

إذن، أنتم تعرفون بأنكم لا تعنون بالفرد إلاّ البرجوازي (أي) المالك البرجوازي. وهذا الفرد لا بُدّ من أن يُزال حقّا.

فالشيوعية لا تجرّد أحدًا من القدرة على تملّك منتجات مجتمعية، بل تنتزع فقط القدرة على استعباد عمل الغير بواسطة هذا التملّك.

وثمّة اعتراض علينا يقول: بإلغاء الملكية الخاصة سينتهي كلّ نشاط وسيَستشري كسل عام.

فلَو صحّ ذلك، لكان المجتمع البرجوازي قد تردّى منذ زمن بعيد في الخمول، إذ أن أولئك الذين يعملون، في المجتمع، لا يمتلكون، وأولائك الذين يمتلكون، لا يعملون. فهذا الوسواس كله يُؤوّل إلى هذا الحشو: حين لا يبقى للرأسمال وجود لا يبقى للعمل المأجور وجود.

والاعتراضات كلها، التي توجّه إلى النمط الشيوعي في إنتاج المنتجات المادية وتملكها، تشمل أيضا إنتاج النتاجات الفكرية وتملكها. وكما أنّ زوال الملكية الطبقية يعادل، في نظر البرجوازي، زوال الإنتاج نفسه، فإنّ زوال الثقافة الطبقية يماثل، في نظره، زوال الثقافة إطلاقا.

والثقافة التي ينوح البرجوازي على ضياعها ليست، بالنسبة إلى الأغلبية الساحقة، إلا تدريبًا يجعل منها ماكينات.

ولكن لا تجادلونا وأنتم تقيسون إلغاء الملكية البرجوازية بمفاهيمكم البرجوازية عن الحرية والثقافة والحق إلخ. فإنّ

أفكاركم نفسها هي نِتاج علاقات الإنتاج البرجوازية والملكية البرجوازية، شأن حقكم، الذي ليس هو سوى إرادة طبقتكم، التي سُنَّت قانونًا، إرادة حدَّدت الشروط المادية لحياة طبقتكم، مضمونها.

فنظرتكم المنفعيّة، التي تحوّلون بها علاقات إنتاجكم وملكيتكم، من علاقات تاريخية عابرة في مجرى الإنتاج إلى قوانين أبديّة (ثابتة) للطبيعة والعقل، هذه النظرة تتشاطرونها وجميع الطبقات السائدة التي بادت. فإن ما تفهمونه بالملكية القديمة، وما تفهمونه بالملكية الإقطاعية، لم يعد بعد الآن معقولا بالنسبة إلى الملكية البرجوازية.

وإلغاء العائلة! حتى أكثر الراديكاليين تطرفًا تثور ثائرتهم على هذا القصد الدنيء للشيوعيين.

فعلامَ ترتكز العائلة الراهنة، العائلة البرجوازية؟ على رأس المال والتملك الخاص. وهي لا توجد بتمام تطورها إلاّ بالنسبة إلى البرجوازية، لكنّها تجد تكملتها في الحرمان القسري من العائلة، بالنسبة إلى البروليتاري، وفي البغاء العلني.

والعائلة البرجوازية تضمحلّ طبعًا باضمحلال تكملتها، فكلتاهما تزولان بزوال رأس المال.

أتأخذون علينا أننا نريد إلغاء استغلال الآباء لأبنائهم؟ هذه

الجريمة نعترف بها، لكن تقولون إننا، بإحلال التربية المجتمعية محلّ التربية البيتيّة، نقضي على أكثر العلاقات حميمية.

أليس المجتمع هو الذي يحدد تربيتكم أنتم، أيضًا؟ ألا تحددها العلاقات المجتمعية التي تربون في إطارها؟ ألا يحددها تدخل المجتمع المباشر وغير المباشر بواسطة المدرسة، إلخ..؟ فالشيوعيون لا يبتدعون فعل المجتمع في التربية. إنهم فقط يغيّرون خاصيّته وينتزعون التربية من تأثير الطبقة السائدة.

فكلما تمزقت، نتيجة للصناعة الكبيرة، كلّ روابط البروليتاري العائلية، وتحوّل الأولاد إلى مجرّد سلع تجارية ومجرّد أدوات عمل، تصبح التشدقات البرجوازية بالعائلة والتربية وبعلاقات الإلفة بين الآباء والأبناء، أكثر إثارة للتقزز.

و"لكنكم، أيها الشيوعيون، تريدون إدخال إشاعة النساء". كذا تزعق بنا بصوت واحد البرجوازية كلها.

فالبرجوازي يرى في امرأته مجرّد أداة إنتاج. وهو يسمع أن أدوات الإنتاج يجب أن تشتغل جماعيًا. وطبعًا، لا يسعه إلاّ أن يعتقد بأنّ قدَر الاشتراكية سيصيب النساء أيضًا.

ولا يدور في خلده أنّ الأمر يتعلق، ضبطًا، بإلغاء وضع النساء كمجرّد أدوات إنتاج.

وللمناسبة، لا شيء أكثر إثارة للسخرية من ذعر برجوازيتنا الأخلاقي المسرف في أخلاقيته، من إشاعة النساء الرسمية، المدّعَى بها على الشيوعيين. فالشيوعيون ليسوا بحاجة إلى إدخال إشاعة النساء، فقد وُجدت على الدوام تقريبًا.

فبرجوازيّونا، غير القنوعين بأن تكون تحت تصرّفهم، نساء بروليتاريتهم وبناتهم، ناهيك عن البغاء الرسمي، يجدون متعة خاصة في أن يتداينوا باتفاق متبادل.

فالزواج البرجوازي، في الحقيقة، هو إشاعة النساء المتزوجات. وقصارى ما يمكن أن يُلام عليه الشيوعيون، هو أنهم يريدون إحلال إشاعة رسمية وصريحة للنساء محل إشاعة مستترة نفاقًا.

وللمناسبة، من البديهي أنه بإلغاء علاقات الإنتاج الراهنة تزول أيضًا إشاعة النساء الناجمة عنها، أي (يزول البغاء الرسمي وغير الرسمي.

وفوق ذلك، يُتّهم الشيوعيون بأنهم يريدون إلغاء الوطن والقومية.

فالعمّال لا وطن لهم. فلا يمكن أن يُسلب منهم ما لا يملكونه. وبما أنه ينبغي على البروليتاريا أن تستولي، أولاً، على السلطة السياسية، وأن تنصّب نفسها طبقة قومية، وأن تتقوّم

كأمّة، فإنها ما تزال قومية، لكن ليس قطعا بالمعنى البرجوازي للكلمة.

فمع نمو البرجوازية، مع حرية التجارة، مع السوق العالمية، مع التماثل في الإنتاج الصناعي والأوضاع الحياتية الملائمة لذلك، تزول الفواصل القوميّة والتناقضات بين الشعوب، أكثر فأكثر.

وسيطرة البروليتاريا ستُزيلها أكثر فأكثر. وعمل البروليتاريا الموحّد، في البلدان المتحضّرة على الأقل، هو أحد الشروط الأولية لتحررها.

وبقدر ما يُقضى على استغلال الفرد للفرد يُقضى على استغلال أمّة لأمّة أخرى.

ومع زوال التناحر بين الطبقات داخل الأمّة يزول موقف العَداء بين الأمم.

والتهم الموجّهة إلى الشيوعية، من وجهات نظر دينية فلسفية إيديولوجية، عموما، لا تستحق نقاشًا أكثر تفصيلاً.

وهل من حاجة إلى نظر ثاقب لإدراك أنه مع تغير أوضاع الناس المعيشية وعلاقاتهم المجتمعية، وحياتهم الاجتماعية، تتغير أيضا تصوراتهم ومعتقداتهم ومفاهيمهم، وبكلمة: وعيهم؟

وهل يُرهن تاريخ الأفكار على شيء سوى أنّ الإنتاج الفكري يتحوّل بتحوّل الإنتاج المادي؟ فالأفكار التي سادت عصرا من العصور، لم تكن قطّ إلا أفكار الطبقة السائدة.

فعندما يجري الحديث عن أفكار تُثوِّر مجتمعًا بأسره، يُعبّر فحسب عن واقع، وهو أنّ عناصر مجتمع جديد قد تكونت في عقر المجتمع القديم، وأنّ انحلال الأوضاع المعيشية القديمة يواكبه انحلال الأفكار القديمة.

فحينما كان العالم القديم يتهاوى انتصر الدين المسيحي على الأديان القديمة، وحينما غُلبت الأفكار المسيحية على أمرها، في القرن الثامن عشر أمام أفكار التنوير، كان المجتمع الإقطاعي يلفظ أنفاسه الأخيرة في صراعه مع البرجوازية، الثوريّة آنئذٍ. ولم تكن أفكار حرية المعتقد والحرية الدينية إلاّ تعبيرًا عن نظام المزاحمة الحرة في مجال المعرفة.

وقد يُقال: "إن الأفكار الدينية والأخلاقية والفلسفية والسياسية والحقوقية" إلخ.. قد تعدّلت بلا شك في مجرى التطور التاريخي، لكن الدين والأخلاق والفلسفة والسياسة والحقوق ظلّت قائمة وسط هذا التحوّل.

"وفوق ذلك هناك حقائق ثابتة مثل الحرّية والعدالة إلخ.. هي واحدة في جميع الأوضاع المجتمعية.

والحال أنّ الشيوعية تلغي الحقائق الثابتة، تلغي الأديان والأخلاق بدلاً من تجديد تشكيلهما، فهي تناقض، إذن، التطورات التاريخية السابقة كلّها".

فإلام تؤول هذه التهمة؟ إنّ تاريخ كل مجتمع، حتى الآن، كان يتحرك في تناحرات طبقية، اتخذت أشكالا مختلفة حسب العهود المختلفة.

ولكن مهما كان الشكل الذي اتخذته هذه التناحرات على الدوام، فإنّ استغلال قسم من المجتمع للقسم الآخر هو واقع واحد لجميع العصور السالفة. ولا عجب إذن إن كان الوعي المجتمعي، في كل العصور، يتحرك، رغم التنوع والتباين، في أشكال مشتركة (واحدة) معينة، في أشكال من الوعي لا تنحلّ تماما إلاّ بزوال التناحر الطبقي كليا.

فالثورة الشيوعية: هي القطيعة الأكثر جذرية مع علاقات الملكية المتوارثة، ولا غرابة في أن تقطع في مجرى نموها، بجذرية أشدّ، صلتها بالأفكار المتوارثة.

ولكن، دعونا من اعتراضات البرجوازية على الشيوعية.

فقبلاً رأينا أنّ الخطوة الأولى في ثورة العمّال هي رفع البروليتاريا إلى طبقة سائدة والفوز بالديمقراطية.

فالبروليتاريا ستستخدم سلطتها السياسية لتنتزع من البرجوازية تدريجيا، رأس المال كله، ولتُمركز أدوات الإنتاج كلّها في أيدي الدولة، أي في أيدي البروليتاريا المنظّمة في طبقة سائدة، ولتزيد حجم القوى المنتجة بأقصى سرعة ممكنة.

وفي البداية، لا يمكن حدوث ذلك طبعًا، إلاّ بالانتهاك الاستبدادي لحق الملكية ولعلاقات الإنتاج البرجوازية، أي بتدابير تبدو، اقتصاديًا ناقصة وغير مأمونة البقاء، لكنّها تتجاوز نفسها في مجرى الحركة، وهي لا غنى عنها كوسيلة لقلب نمط الإنتاج بأسره.

وطبعا تختلف هذه التدابير تبعا لاختلاف البلدان.

غير أنّ تطبيق التدابير الآتية ممكن، بصورة عامة تقريبا، بالنسبة إلى البلدان الأكثر تقدما:

1- نزع الملكية العقارية وتخصيص الريع العقاري لتغطية نفقات الدولة.

2- (فرض) ضريبة تصاعدية مرتفعة.

3- إلغاء قانون الوراثة.

4- مصادرة ملكية جميع المهاجرين والعُصاة.

5- مركزة التسليف في أيدي الدولة بواسطة مصرف وطني رأسماله للدولة والاحتكار له وحده.

6- مركزة وسائل النقل في أيدي الدولة.

7- تكثير الفبارك الوطنية وأدوات الإنتاج، واستصلاح الأراضي الموات وتحسين الأراضي المزروعة، وفق تخطيط عام.

8- عمل إلزامي متكافئ للجميع، وتنظيم جيوش صناعية، لا سيما للزراعة.

9- التوفيق بين العمل الزراعي والصناعي، والعمل تدريجيا على إزالة الفارق بين المدينة والريف.

10- تربية عامة ومجانية لجميع الأطفال، وإلغاء عمل الأولاد في الفبارك بشكله الراهن، والتوفيق بين التربية والإنتاج المادي، إلخ..

وما أن تختفي، في سياق التطور، الفوارق الطبقية، وما أن يتجمع الإنتاج كلّه في أيدي الأفراد المتشاركين، حتى تفقد السلطة العامة طابعها السياسي. فالسلطة السياسية، بمعناها الحقيقي، هي العنف المنظّم لطبقة في سبيل قمع طبقة أخرى.

فعندما تتوحد البروليتاريا وجوبًا في طبقة إبّان كفاحها ضد البرجوازية، وعندما تنصّب نفسها من خلال الثورة طبقة سائدة، وتلغي علاقات الإنتاج القديمة بالعنف، بصفتها طبقة سائدة، فإنها تلغي أسباب وجود التناحر الطبقي وتلغي بالتالي الطبقات عامة، تلغي سيطرتها الخاصة كطبقة.

ومحل المجتمع البرجوازي القديم، بطبقاته وتناحراته الطبقية، يحلّ تجمُّع تشاركيّ، يكون فيه التطور والتقدم الحر لكل فرد شرطًا للتطور والتقدم الحر للجميع.

الفصل الثالث

الأدب الاشتراكي والشيوعي

1 - الاشتراكية الرجعية

أ - الاشتراكية الإقطاعية

وَجدت الأرستقراطية الفرنسية والإنكليزية نفسها مدعوّة، بحكم موقعها التاريخي، إلى كتابة قطع هجائية ضدّ المجتمع البرجوازي الحديث. ففي ثورة تموز (يوليو) الفرنسية عام 1830، وفي حركة الإصلاح الإنكليزية، كانت قد انهزمت مرة أخرى، أمام هذا الوصوليّ المقيت، فلم يعد ممكنًا الحديث عن نضال سياسي جديّ. لقد بقي لها النضال الأدبي فقط. ولكن التشدقات الكلامية القديمة، عهد إعادة الملكية[أ]، غدت في ميدان الأدب أيضا مستحيلة. ولتستدرّ العطف اضطرت الأرستقراطية إلى التظاهر بالتخلّي عن مصالحها، وإلى وضع قرارها الإتهامي ضد البرجوازية لمصلحة الطبقة العاملة المستَغلّة فقط. وعلى هذا الوجه وفرت لنفسها لذة هجاء سيّدها الجديد بواسطة الأغاني، والغمغمة في أذنه بتنبؤات مشحونة بفيض من النذر.

وهكذا نشأت الاشتراكية الإقطاعية مزيجًا من نحيب وهجاء من صدى الماضي ووعيد المستقبل، مصيبة أحيانًا

البرجوازية في الصميم بحُكم قاس ثاقب، ومُثيرة السخرية باستمرار لعجزها التام عن إدراك مسيرة التاريخ الحديث.

فعوضًا عن التلويح بالراية لوَّح الأرستقراطيون بمخلاة التسوّل البروليتارية، ليحشروا الشعب خلفهم؛ لكنه ما أن تبعهم حتى لمح على عجيزتهم شارات النَّسب الإقطاعية القديمة، فانفضَّ عنهم بقهقهات وقحة مستخفة.

وقد أجاد في تمثيل هذا المشهد قسم من الشرعيين الفرنسيين ومن إنكلترا الفتاة.

وعندما يبرهن الإقطاعيون على أنّ نمط استغلالهم كان يختلف عن نمط الاستغلال البرجوازي، ينسَون فقط أنهم كانوا يستغلون في أوضاع وشروط مختلفة كليا ولّى اليوم عهدها. وعندما يُثبتون أنّ البروليتاريا الحديثة لم تكن موجودة في ظل سيطرتهم، ينسَون فقط أنّ البرجوازية الحديثة كانت، ضبطا، وليدا واجب الوجود لنظامهم المجتمعي.

وزد على ذلك أنهم قلّما يُخفون الطابع الرجعي لانتقادهم، إذ أنّ مأخذهم الرئيسي على البرجوازية يَكمُن، ضبطا، في القول إنّ الطبقة التي تتشكل في ظلّ نظامها، ستنسف النظام المجتمعي القديم برُمّته.

وهم لا يلومون البرجوازية، أكثر ما يلومونها، لأنها أنجبت البروليتاريا بشكل عام، بل لأنها أنجبت البروليتاريا الثورية.

ولذا فإنهم في الممارسة السياسية يشتركون في جميع التدابير القمعية ضد الطبقة العاملة، ورغما عن تشدقاتهم الجوفاء فإنهم في حياتهم الإعتيادية يَرتضون التقاط التفاحات الذهبية، ومقايضة الوفاء والحب والكرامة بالمتاجرة بالصوف والشمندر والعرق[2].

ومثلما سار الكاهن والإقطاعي دوما يدا بيد تَسير الاشتراكية الكهنوتية والاشتراكية الإقطاعية.

فلا شيء أسهل من إضفاء صبغة الاشتراكية على التنسك المسيحي. ألم تُلغِ المسيحية أيضا الملكية الخاصة والزواج والدولة؟ وبدلا منها ألم تعظ بالصدقة والتسول والتبتل وأمانة الجسد، والحياة الرهبانية والكنسية؟ فالاشتراكية المسيحية ليست إلاّ الماء المقدّس الذي يكرّس به الكاهن حقد الأرستقراطي.

ب - الاشتراكية البرجوازية الصغيرة

الأرستقراطية الإقطاعية ليست الطبقة الوحيدة التي أطاحتها البرجوازية، والتي ذبُلت شروط حياتها وهلكت في

المجتمع البرجوازي الحديث. فإنّ برجوازيي المدن وفئة الفلاحين الصغار في القرون الوسطى كانوا طلائع البرجوازية الحديثة.

وهذه الطبقة لا تزال، في البلدان الأقل تطورًا صناعيًا وتجاريًا، تعيش حياة خاملة إلى جانب البرجوازية الصاعدة.

وفي البلدان، التي نمت فيها الحضارة الحديثة، تكونت برجوازية صغيرة جديدة تتأرجح بين البروليتاريا والبرجوازية. وهي كجزء مكمل للمجتمع البرجوازي لا تفتأ تعيد تشكيل نفسها؛ ومن جرّاء المزاحمة ينحدر أفرادها باستمرار إلى (صفوف) البروليتاريا؛ بالإضافة إلى ذلك يرون، مع نمو الصناعة الكبيرة، اقتراب الساعة التي سيضمحلّون فيها كليًّا، بوصفهم قسمًا مستقلاً عن المجتمع الحديث، ليحُلّ محلهم، في التجارة والمانيفاتورة والزراعة، نُظّار العمل والمستخدمين.

وكان طبيعيًا، في بلدان مثل فرنسا، حيث تُشكّل طبقة الفلاحين أكثر من نصف السكان، أن يَعمد الكُتّاب، الذين يناصرون البروليتاريا ضد البرجوازية، إلى استخدام معيار برجوازي صغير وفلاحي صغير في نقدهم النظام البرجوازي، وأن ينحازوا إلى العمال من وجهة نظر البرجوازية الصغيرة. وعلى هذا الوجه تكونت الاشتراكية البرجوازية الصغيرة.

وسيسموندي هو زعيم هذا الأدب لا في فرنسا

فحسب بل في إنكلترا أيضًا.

فهذه الاشتراكية حلّلت، بكثير من الفطنة، التناقضات في علاقات الإنتاج الحديثة، وفضحت تبريرات الإقتصاديين المنافقة، وأثبتت، بشكل لا يُدحض، التأثيرات المدمّرة للمكننة، وتقسيم العمل، وحصر رؤوس الأموال والملكية العقارية، والإنتاج الزائد، والأزمات والانحلال المحتم للبرجوازيين الصغار والفلاحين الصغار، وبؤس البروليتاريا، والفوضى في الإنتاج، والتفاوت الصارخ في توزيع الثروة، والحرب الصناعية الماحقة بين الأمم وانحلال العادات القديمة، والعلاقات العائلية القديمة، والقوميات القديمة.

وهذه الاشتراكية، بحسب مضمونها الوضعي، تريد إمّا إعادة وسائل الإنتاج والتبادل القديمة، وبذلك تعيد علاقات الملكية القديمة و المجتمع القديم، وإمّا حصر وسائل الإنتاج والتبادل الحديثة بالقوة في إطار علاقات الملكية القديمة الذي نسفته، والذي لا بدّ من نسفه. وهي في كلتا الحالتين رجعيّة وطوباوية في آن واحد.

النظام الحرفي في المانيفاتورة، والاقتصاد البطريركي في الريف: تلك هي كلمتها الأخيرة، وهذا الإتجاه انتهى، في تطوره اللاحق، إلى مُواءٍ جبان.

ج - الاشتراكية الألمانية أو الاشتراكية "الصحيحة"

إنّ الأدب الإشتراكي والشيوعي في فرنسا، الذي نشأ تحت ضغط برجوازية مسيطرة، تعبيرا أدبيا عن النضال ضد هذه السيطرة، أدخِل إلى ألمانيا في وقت كانت البرجوازية (الألمانية) تستهلّ نضالها ضد الإقطاعية الإستبدادية.

وبشراهة تخاطف الفلاسفة، وأدعياء الفلسفة، والأدباتية الألمان، هذا الأدب. ولكنهم نسوا أنّ نزوح تلك الكتابات، من فرنسا إلى ألمانيا، لم يرافقه في الوقت نفسه نزوح أوضاع الحياة الفرنسية. ففقد الأدب الفرنسي، في الأوضاع الألمانية، كل أهمية عملية مباشرة واتخذ وجها أدبيا بحتا. ومن ثم كان لا بد من أن يبدو كتأمل لا نفع فيه حول تحقيق الجوهر الإنساني. وهكذا، لم تكن مطالب الثورة الفرنسية الأولى، في نظر الفلاسفة الألمان في القرن الثامن عشر، سوى مطالب "العقل المعياري" بصورة عامة؛ وتجليات إرادة البرجوازية الثورية الفرنسية، لم تكن تعني في نظرهم، سوى قوانين الإرادة البحتة، الإرادة كما ينبغي أن تكون، الإرادة الإنسانية الحقة.

والعمل الوحيد للأدباء الألمان كان ينحصر في التوفيق بين الأفكار الفرنسية الجديدة ووجدانهم الفلسفي القديم، أو بالأحرى في انتحال الأفكار الفرنسية انطلاقا من آرائهم

الفلسفية؛ وهذا الانتحال تم بالطريقة نفسها التي يتعلم بها المرء عادة لغة أجنبية، أي بواسطة الترجمة.

ومعروف كيف استبدل الرهبان عناوين المخطوطات، المنطوية على الأعمال الكلاسيكية للعهد الوثني القديم، بعناوين حكايات سمجة لقدّيسين كاثوليك. أمّا الأدباء الألمان فقد تصرفوا حيال الأدب الفرنسي الدنيوي على عكس ذلك، لقد ذيّلوا الأصل الفرنسي بهرائهم الفلسفي، فكتبوا، مثلا تحت النقد الفرنسي للعلاقات المالية: "تجريد الكائن البشري"، وتحت النقد الفرنسي للدولة البرجوازية: "إلغاء سيطرة الكلّي المجرّد" إلخ..

وبعد أن أبدلوا الشروح الفرنسية بهذه العبارات الفلسفية المبهرجة الفارغة، أطلقوا على عملهم هذا مختلف الأسماء مثل "فلسفة الفعل"، و"الاشتراكية الحقّة"، و"علم الاشتراكية الألمانية"، و"التعليل الفلسفي للاشتراكية"، إلخ..

وبهذه الطريقة خُصي الأدب الاشتراكي-الشيوعي الفرنسي خصيا واضحا. وبما أن هذا الأدب كفّ في أيدي الألمان، عن التعبير عن نضال طبقة ضد أخرى، تصوّر الألمان أنهم تجاوزوا "المحدودية الفرنسية"، وأنّهم دافعوا لا عن الحاجات الحقيقية، بل عن الحاجة إلى الحقيقة، ولا عن

مصالح البروليتاري، بل عن مصالح الكائن البشري، مصالح الإنسان على العموم، الإنسان الذي لا ينتمي إلى أي طبقة، ولا إلى الواقع إطلاقا، بل ينتمي فحسب إلى سماء الخيال الفلسفي المضبَّبة.

وهذه الاشتراكية الألمانية، التي حملت تمارينها المدرسية الحمقاء على محمل الجد والمهابة الكبيرين، وزمَّرت لها وطبّلت بمثل هذا الزعيق، فقدت شيئا فشيئا براءتها الدعية.

فإنّ نضال البرجوازية الألمانية لا سيّما البرجوازية البروسية، وبكلمة نضال الحركة الليبرالية ضد الإقطاعيين والملكية المطلقة، أصبح أكثر جديّة.

وبهذا الشكل أتيحت للاشتراكية "الحقّة" الفرصة المنشودة لمواجهة الحركة السياسية بالمطالب الاشتراكية، ولصبّ اللعنات التقليدية على الليبرالية، والنظام التمثيلي، والمزاحمة البرجوازية، وحرية الصحافة البرجوازية، والقانون البرجوازي، والحرية والمساواة البرجوازيتين، ولتحذير الجماهير من أنها لا تكسب شيئًا من هذه الحركة البرجوازية، بل بالعكس ستخسر فيها كل شيء ولقد سَها عن الاشتراكية الألمانية، ضبطًا، أنّ النقد الفرنسي الذي كانت هي صداه البليد يستلزم وُجود المجتمع البرجوازي الحديث مع الشروط

الحياتية المادية المطابقة له، ومع الدستور السياسي المناسب، تلك المستلزمات التي كان العمل يجري في ألمانيا لتحقيقها.

فالاشتراكية خدمت الحكومات الألمانية المطلقة وحاشيتها، من كهنة وعلماء تربية وإقطاعيين بُلداء وبيروقراطيين، كفزّاعة منشودة ضد وعيد البرجوازية المتصاعد.

والاشتراكية شكّلت التكملة المتكلفة الحلاوة، لمرارة لذع السياط وطلقات البنادق، التي تصدّت بها الحكومات نفسها للانتفاضات العمّالية الألمانية.

وإن كانت الاشتراكية "الحقّة" قد غدت، بهذه الصورة، سلاحا في أيدي الحكومات ضد البرجوازية الألمانية، فإنّها كانت تُمثّل مباشرة مصلحة رجعية، مصلحة البرجوازية الألمانية الصغيرة و(هذه) البرجوازية الصغيرة، التي خلّفها القرن السادس عشر والتي ما انفكت تظهر بأشكال مختلفة، تشكل في ألمانيا الأساس المجتمعي الفعليّ للأوضاع القائمة.

فالحفاظ عليها هو الحفاظ على الأوضاع الألمانية القائمة. وهي تخاف من الهلاك المبين أمام السيطرة الصناعية والسياسية للبرجوازية، نتيجة لتمركز رأس المال من ناحية، ولبروز بروليتاريا ثورية من ناحية أخرى؛ وقد تراءى لها أنّ

مصالح البروليتاري، بل عن مصالح الكائن البشري، مصالح الإنسان على العموم، الإنسان الذي لا ينتمي إلى أي طبقة، ولا إلى الواقع إطلاقا، بل ينتمي فحسب إلى سماء الخيال الفلسفي المضبَّبة.

وهذه الاشتراكية الألمانية، التي حملت تمارينها المدرسية الحمقاء على محمل الجد والمهابة الكبيرين، وزمّرت لها وطبّلت بمثل هذا الزعيق، فقدت شيئا فشيئا براءتها الدعية.

فإنّ نضال البرجوازية الألمانية لا سيّما البرجوازية البروسية، وبكلمة نضال الحركة الليبرالية ضد الإقطاعيين والملكية المطلقة، أصبح أكثر جدية.

وبهذا الشكل أتيحت للاشتراكية "الحقّة" الفرصة المنشودة لمواجهة الحركة السياسية بالمطالب الاشتراكية، ولصبّ اللعنات التقليدية على الليبرالية، والنظام التمثيلي، والمزاحمة البرجوازية، وحرية الصحافة البرجوازية، والقانون البرجوازي، والحرية والمساواة البرجوازيتين، ولتحذير الجماهير من أنها لا تكسب شيئًا من هذه الحركة البرجوازية، بل بالعكس ستخسر فيها كل شيء ولقد سها عن الاشتراكية الألمانية، ضبطًا، أنّ النقد الفرنسي الذي كانت هي صداه البليد يستلزم وُجود المجتمع البرجوازي الحديث مع الشروط

الحياتية المادية المطابقة له، ومع الدستور السياسي المناسب، تلك المستلزمات التي كان العمل يجري في ألمانيا لتحقيقها.

فالاشتراكية خدمت الحكومات الألمانية المطلقة وحاشيتها، من كهنة وعلماء تربية وإقطاعيين بُلداء وبيروقراطيين، كفزّاعة منشودة ضد وعيد البرجوازية المتصاعد.

والاشتراكية شكّلت التكملة المتكلفة الحلاوة، لمرارة لذع السياط وطلقات البنادق، التي تصدّت بها الحكومات نفسها للانتفاضات العمّالية الألمانية.

وإن كانت الاشتراكية "الحقّة" قد غدت، بهذه الصورة، سلاحا في أيدي الحكومات ضد البرجوازية الألمانية، فإنّها كانت تُمثّل مباشرة مصلحة رجعية، مصلحة البرجوازية الألمانية الصغيرة و(هذه) البرجوازية الصغيرة، التي خلّفها القرن السادس عشر والتي ما انفكت تظهر بأشكال مختلفة، تشكل في ألمانيا الأساس المجتمعي الفعليّ للأوضاع القائمة.

فالحفاظ عليها هو الحفاظ على الأوضاع الألمانية القائمة. وهي تخاف من الهلاك المبين أمام السيطرة الصناعية والسياسية للبرجوازية، نتيجة لتمركز رأس المال من ناحية، ولبروز بروليتاريا ثورية من ناحية أخرى؛ وقد تراءى لها أنّ

الاشتراكية "الحقّة" قادرة على إصابة عصفورين بحجر واحد. فتفشّت (الاشتراكية) تفشّي الوباء.

والحُلّة المصنوعة من شفافية النظريات التجريدية، والمطرّزة بمحسّنات لفظيّة، والمسبقة بندى الوجد الدافئ، هذه الحُلّة، التي غلّف بها الاشتراكيون الألمان بِضْعا من "حقائقهم الخالدة" (الثابتة) الهزيلة، لم تَزِد إلاّ في رواج بضاعتهم لدى الجمهور.

وأكثر فأكثر أدركت الاشتراكية الألمانية من جهتها، أن مهمتها هي أن تكون المثل الطنّان لهذه البرجوازية الصغيرة.

فأعلنت أنّ الأمة الألمانية هي الأمة السوية، وأنّ البرجوازي الألماني الصغير هو الإنسان السوي. وأضفت على نذالته كلها معنى غامضا ساميا واشتراكيا، جعلها تدل على عكس واقعها. وآل بها المطاف إلى التصدي مباشرة للاتجاه الشيوعي ""الهدّام الفظّ"، وأعلنت أنها تحلّق بتجرّد فوق كل الصراعات الطبقية. وعدا استثناءات قليلة جدا فإنّ كل الكتابات الاشتراكية والشيوعية المزعومة، المتداولة في ألمانيا، تنتمي إلى قطاع هذا الأدب القذر المثير للأعصاب[3].

2 - الاشتراكية المحافظة أو الاشتراكية البرجوازية

يرغب قسم من البرجوازية في معالجة الأوضاع المجتمعية السيئة لضمان بقاء المجتمع البرجوازي.

ويندرج في هذا القسم: اقتصاديون وخيِّرون وإنسانيون ومحسّنو وضع الطبقات الكادحة، ومنظّمو أعمال البر والإحسان وجمعيات الرفق بالحيوان، وجمعيات الاعتدال والقناعة، ومصلحون ضيقو الأفق من كل الأصناف. واشتراكية البرجوازيين هذه صيغت في مذاهب كاملة.

ونورد، مثالا على ذلك، "فلسفة البؤس" لبرودون.

فالبرجوازيون الاشتراكيون يريدون شروط حياة المجتمع الحديث، (لكن) بدون النضالات والأخطار الناجمة عنها بالضرورة. إنّهم يريدون المجتمع القائم منقى من العناصر التي تثوّره وتهدمه. إنّهم يريدون البرجوازية بدون البروليتاريا. وبالطبع تتصور البرجوازية العالم الذي تسود فيه كأفضل العوالم. واشتراكية البرجوازيين تصوغ من هذا التصوّر المعزّي نصف مذهب أو مذهبًا كاملاً. وهي، بدعوتها البروليتاريا إلى تحقيق مذاهبها والدخول إلى أورشليم الجديدة، تطالب في الحقيقة فقط بأن تتشبّث (البروليتاريا) بالمجتمع الراهن، على أن تنفض عنها تصورات كراهيتها لهذا المجتمع.

وهناك شكل آخر لهذه الاشتراكية، عمليًا أكثر وأقل تمذهبا، سعى إلى جعل الطبقة العاملة تنفر من كل حركة ثورية، بالبرهنة على أنّ ما يسعه أن يُفيدها، ليس هذا التغيير السياسي أو ذاك، وإنّما فقط تغيير أوضاع الحياة المادية، أي الأوضاع الاقتصادية. وهذه الاشتراكية لا تفهم إطلاقًا أنّ تغيير أوضاع الحياة المادية يقتضي إلغاء علاقات الإنتاج البرجوازية، الذي لا يتمّ إلاّ بالطريق الثوري، بل تعني إصلاحات إدارية تستند إلى أساس علاقات الإنتاج هذه، أي أنها لا تغير شيئا في العلاقة بين رأس المال والعمل المأجور، بل تقلل، في أفضل الأحوال، نفقات سيطرة البرجوازية وتخفف ميزانية الدولة.

فاشتراكية البرجوازيين لا تبلغ تعبيرها الملائم إلاّ عندما تسمي مجرد تعبير بياني. فحرية التجارة، لمصلحة الطبقة العاملة، والحماية الجمركية لمصلحة الطبقة العاملة، والسجون الإنفرادية لمصلحة الطبقة العاملة: هذه هي الكلمة الأخيرة والوحيدة الجادة، التي تقصدها اشتراكية البرجوازيين.

فاشتراكية البرجوازية لا تكمن إلاّ في الإدعاء القائل إنّ البرجوازيين هم برجوازيون – لمصلحة الطبقة العاملة.

3 - الاشتراكية والشيوعية النقديتان الطوباويتان

وهنا لا نتحدث عن الأدب الذي أعرب، في كل الثورات الكبرى الحديثة، عن مطالب البروليتاريا (كتابات بابوف، إلخ..) فالمحاولات الأولى للبروليتاريا لتغليب مصالحها الطبقية مباشرة في زمن غليان عام عهد انهيار المجتمع الإقطاعي، أخفقت بالضرورة نظرا إلى جنينية البروليتاريا نفسها، وإلى فقدان الشروط المادية لتحرّرها، التي هي، قبل كل شيء، حصيلة العصر البرجوازي. والأدب الثوري، الذي كان يرافق هذه الحركات الأولى للبروليتاريا، هو بالضرورة رجعي المحتوى. فهو يدعو إلى تقشف عام، إلى مساواتية فجة.

وفي الحقيقة فإنّ المذاهب الاشتراكية والشيوعية، مذاهب سان سيمون، وفورييه، وأوين، إلخ.. ظهرت في الحقبة الأولى الجنينية من الصراع بين البروليتاريا والبرجوازية، أي في الحقبة التي ذكرناها آنفا (راجع: برجوازية وبروليتاريا).

إنّ مبتدعي هذه المذاهب يستبينون حقًا التناحر بين الطبقات، مثلما يستبينون تأثير العناصر الهدّامة في المجتمع السائد نفسه، لكنهم لا يتبيّنون في اتّجاه البروليتاريا أيّ فعل تاريخي تلقائي، أو أيّة حركة سياسية خاصة بها.

ولما كان نمو التناحر الطبقي يواكب نمو الصناعة، فإنّهم كذلك لا يعثرون على الشروط المادية لتحرّر البروليتاريا، ويأخذون في البحث عن علم مجتمعي، عن قوانين مجتمعية، لخلق هذه الشروط.

فعن النشاط المجتمعي يستعيضون بنشاط حذاقتهم الشخصية، وعن الشروط التاريخية للتحرر (يستعيضون) بشروط كيفية، وعن تنظيم البروليتاريا في طبقة تنظيمًا تدريجيًا متصاعدا (يستعيضون) بتنظيم للمجتمع يختلقونه. وفي نظرهم، فإنّ تاريخ العالم المقبل ينحلّ في الدعاية وفي التنفيذ العملي لتصاميمهم المجتمعية.

ولكنهم يعون أنّهم بتصاميمهم يُدافعون بالدرجة الأولى عن مصالح الطبقة العاملة، بوصفها الطبقة الأكثر معاناة. فالبروليتاريا بالنسبة إليهم لا تكون إلا بهيئة الطبقة الأكثر معاناة.

وعن الشكل الأوّلي للصراع الطبقي، وكذلك عن وضعهم المعيشي، ينتج اعتقادهم بأنهم فوق كل تناحر طبقي. فهم يريدون أن يُحسّنوا الوضع الحياتي لكل أعضاء المجتمع، حتى لأكثرهم يسرا. ولذا يتوجهون باستمرار إلى المجتمع بأسره بدون تمييز، بل (يتوجهون) بالأحرى إلى الطبقة السائدة. فحَسْب المرء أن يفهم مذهبهم كي يعترف بأنّه

أفضل خطة ممكنة لأفضل مجتمع ممكن.

فهم إذن، ينبذون كل نشاط سياسي، وخصوصا كل نشاط ثوري، ويريدون بلوغ هدفهم بطريقة سلمية، ويحاولون أن يشقوا الطريق للإنجيل المجتمعي الجديد بتجارب صغيرة فاشلة بالطبع وبقوة المثال.

وهذا الوصف الخياليّ للمجتمع المقبل، في زمن ما زالت فيه البروليتاريا، الضعيفة النمو إلى حدّ بعيد، تنظر في وضعها بكيفية هي ذاتها خياليّة، إن هذا الوصف ينبثق من اندفاعاتها الغريزية الأولى نحو تحويل المجتمع تحويلاً شاملاً.

بَيْد أنّ الكتابات الاشتراكية والشيوعية تشتمل أيضا على عناصر نقدية. فهي تهاجم المجتمع القائم بكل أسسه. ومن ثم فإنّها تُقدِّم مادة قيّمة جدا لتنوير العمال. فإنّ موضوعاتها الإيجابية عن مجتمع المستقبل، مثل إزالة التناقض بين المدينة والريف، وإلغاء العائلة، والربح الخاص، والعمل المأجور، و المناداة بالإنسجام المجتمعي، و بتحويل الدولة إلى مجرّد إدارة للإنتاج، هذه الموضوعات كلّها لا تعبّر إلاّ عن إلغاء التناحر الطبقي الذي ابتدأ ينمو، والذي لا تعرف هذه الكتابات إلاّ شكله الأوّلي المبهم غير المحدد - ولذا ليس لهذه الموضوعات حتى الآن سوى معنى طوباوي صرف.

فأهمية الاشتراكية والشيوعية النقديتين – الطوباويتين تتناسب عكسًا والتطور التاريخي. فبقدر ما ينمو الصراع الطبقي ويتجسم، يفقد هذا الترفّع الخيالي عن هذا الصراع، و(تفقد) مكافحته المتخيلة، كل قيمة عملية، وكل تبرير نظري. ولهذا، إذا كان واضعوا هذه المذاهب ثوريين في كثير من النواحي، فإنّ مريديهم يؤلفون في كل حين شيعا رجعية. فهم يتشبّثون بآراء أساتذتهم القديمة تجاه التطور التاريخي المطّرد للبروليتاريا. ولذا يسعَون بإصرار إلى إخماد الصراع الطبقي الجديد، وإلى التوفيق بين التناقضات. فهم لا يزالون يحلمون بأن يحققوا تجريبيا طوباوياتهم المجتمعية – إقامة الفالانستيرات[4] المعزولة، وتأسيس مستوطنات داخلية[5]، وتأسيس إيكارية[6] صغيرة – طبعة مُصغَّرة عن أورشليم الجديدة – ولبناء هذه القصور كلها على الرمال توجب عليهم أن يُناشدوا رأفة القلوب والجيوب البرجوازية. وشيئًا فشيئًا ينحدرون إلى مصاف فصيلة الاشتراكيين الرجعيين أو المحافظين الذين جرى وصفهم آنفا، وهم لا يختلفون عنهم إلاّ بحذلقة أكثر منهجية، وباعتقاد خرافيّ متعصّب بالمفعول العجائبي لعلمهم المجتمعي.

ولذا يتصدّون بضراوة لكل حركة سياسية عُمّالية، إذ لا يُمكن أن تصدر إلاّ عن كفر أعمى بالإنجيل الجديد.

الأوينيون في إنكلترا، والفوريبيون في فرنسا، يقاومون. هناك الشارتيين وهنا الإصلاحيين.

الهوامش:

(1) المقصود هنا، ليس إعادة الملكية في إنكلترا 1660 – 1689، بل في فرنسا 1814 – 1830 (ملاحظة المجلس للطبعة الإنكليزية 1888).

(2) هذا ينطبق بالدرجة الأولى على ألمانيا، حيث الأرستقراطيون الزراعيون وكبار أصحاب الأراضي الألمان، يشرفون على إدارة الشؤون الاقتصادية في القسم الأكبر من أراضيهم، على حسابهم الخاص بواسطة الوكلاء، وحيث يملكون علاوة على ذلك معامل كبيرة للسكر والعرق. أمّا أغنى الأرستقراطيين الإنكليز فلم تبلغ بهم الحال بعد هذه الدرجة، إلاّ أنهم يعرفون هم أيضا كيف يُعوّضون عن هبوط الريع بإعطاء أسمائهم لمؤسسي شركات مساهمة، مشكوك فيها إلى هذا الحد أو ذاك (ملاحظة المجلس للطبعة الإنكليزية 1888).

(3) عاصفة ثورة عام 1848 كنست هذا الإتجاه الرث كله، وأفقدت داعميه الرغبة في مواصلة الانشغال بالاشتراكية. والمثل الرئيسي، بل النمط الكلاسيكي لهذا الاتجاه، هو السيد كارل غرون (ملاحظة المجلس الطبعة الألمانية 1890).

(4) فلانستير، إسم القصور الإجتماعية التي تخيّلها فورييه. (ملاحظة إنجلس الطبعة الألمانية 1890).

(5) المستوطنات الداخلية Home - Colonies. هكذا سمى أوين مجتمعاته الشيوعية النموذجية (ملاحظة إنجلس الطبعة الألمانية 1890).

(6) إيكارية Icarie إسم أطلقه كابه على بلد تخيّله، ثم على مستعمرة شيوعية، أنشأها في أمريكا (ملاحظة إنجلس للطبعة الإنكليزية 1888) اسم بلد خيالي طوباوي وصف به كابه مؤسساته الشيوعية. (ملاحظة إنجلس الطبعة الألمانية 1890).

الفصل الرابع

موقف الشيوعيين

من مختلف أحزاب المعارضة

وفقا للفصل الثاني يتضح بالبداهة موقف الشيوعيين من الأحزاب العمالية القائمة، وبالتالي موقفهم من الشارتيين في إنكلترا، والإصلاحيين الزراعيين في أمريكا الشمالية.

فهم (الشيوعيون) يناضلون لتحقيق الأهداف والمصالح المباشرة للطبقة العاملة، لكنهم في الوقت نفسه يمثلون، في الحركة الراهنة، مستقبل الحركة. ففي فرنسا ينضم الشيوعيون إلى الحزب الاشتراكي - الديمقراطي[1] ضدّ البرجوازية المحافظة والراديكالية، بدون أن يتخلوا عن حق اتّخاذ موقف نقدي من الجُمل الرنانة والأوهام التي خلفها التقليد الثوري.

وفي سويسرا، يساندون الراديكاليين، بدون أن يَغيب عن بالهم أنّ هذا الحزب يتكوّن من عناصر متناقضة، متّسم (مُؤلّف) من اشتراكيين وديمقراطيين بالمفهوم الفرنسي للكلمة، وقسم من برجوازيين راديكاليين.

وفي بولونيا (بولندا) يساند الشيوعيون الحزب الذي يجعل من الثورة الزراعية شرطا للتحرر الوطني، أي ذلك

الحزب الذي بثّ الحياة في انتفاضة كراكاو عام 1846.

وفي ألمانيا يُناضل الحزب الشيوعي مع البرجوازية كلما قاومت البرجوازية مقاومة ثورية، النظام الملكي المطلق، والملكية العقارية الإقطاعية، والبرجوازية الصغيرة الضيقة الأفق.

بيد أنّه لا يتغافل لحظة عن خلق وعي، واضح قدر الإمكان، لدى العمال حول التناقض العدائي بين البرجوازية والبروليتاريا، حتى يستطيع العمال الألمان أن يوجّهوا فورا الشروط المجتمعية والسياسية التي توجدها البرجوازية وسلطتها، كأسلحة عديدة، ضد البرجوازية، كي يبدأ النضال ضد البرجوازية نفسها فور إسقاط الطبقات الرجعية في ألمانيا.

فإلى ألمانيا يُوجّه الشيوعيون اهتمامهم الرئيسي، لأنّ ألمانيا على أعتاب ثورة برجوازية، لأنّها ستنجز هذا التحول في شروط الحضارة الأوروبية الأكثر تقدما، ومع بروليتاريا نامية للغاية، أكثر منها في إنكلترا في القرن السابع عشر، وفي فرنسا في القرن الثامن عشر، لأنّ الثورة البرجوازية الألمانية بالتالي لا يمكنها إلاّ أن تكون استهلالا مباشرا لثورة بروليتارية.

وباختصار يُساند الشيوعيون، في كل مكان، كل حركة ثورية ضد الأوضاع المجتمعية والسياسية القائمة.

وفي كل هذه الحركات يُبرزون مسألة الملكية، مهما كانت درجة تطور الشكل الذي تتخذه، المسألة الأساسية للحركة.

وأخيرا يعمل الشيوعيون، في كل مكان، على إقامة العلاقات، وعلى تحقيق التفاهم بين الأحزاب الديمقراطية في جميع البلدان.

ويأنف الشيوعيون من إخفاء آرائهم ومقاصدهم، ويُنادون علانية بأن لا سبيل لبلوغ أهدافهم إلاّ بإسقاط النظام المجتمعي القائم، بالعُنف. فلترتعد الطبقات السائدة خوفًا من ثورة شيوعية. فليس للبروليتاريين ما يفقدونه فيها سوى أغلالهم وأمامهم عالم يكسبونه. أيّها البروليتاريون، في جميع البلدان، اتحدوا[2].

الهوامش:

(1) هذا الحزب كان يمثّله في البرلمان حينئذ ليدرو رولان، و في الأدب لوي بلان، وفي الصحافة اليومية جريدة "لا ريفورم" (الإصلاح). وكانوا يشيرون بالاشتراكي الديمقراطي، هذا الإسم الذي اخترعه، إلى هذا القسم من الحزب الديمقراطي أو الجمهوري الذي كان يتصف، إلى هذه الدرجة أو تلك، باللون الإشتراكي (ملاحظة إنجلس للطبعة الإنكليزية 1888). ما كان يُسمّى حينئذ في فرنسا بالحزب الإشتراكي

الديمقراطي، كان يمثله في السياسة ليدرو رولان، وفي الأدب لوي بلان، وبالتالي كان بعيدًا جدًا عن الاشتراكية الديمقراطية الألمانية الحالية (ملاحظة إنجلس للطبعة الألمانية 1890).

(2) هذا النداء درج على ترجمته بـ "يا عمال العالم، اتحدوا".

مقدمات طبعات البيان الشيوعي

مقدمة الطبعة الألمانية لسنة 1872

في مؤتمر لندن المنعقد في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1847 كلّفت "عصبة الشيوعيين"، التي كانت رابطة عمالية أممية – لم يكن باستطاعتها بحكم العلاقات السائدة في ذلك الوقت، إلا أن تكون سرية – الموقعين بصياغة برنامج حزبي، نظري وتطبيقي، مفصّل موجه إلى الرأي العام.

وهكذا نشأ البيان الآتي الذي عرفت مخطوطته الطريق إلى الطباعة في لندن قبل أسابيع قليلة من قيام ثورة شباط (فبراير1848 في فرنسا)، وقد نُشِرَ البيان باللّغة الألمانية[1]، وظهرَ باللغة ذاتها في ألمانيا وإنكلترة، وأميركا، في إثنتي عشرة طبعة مختلفة على الأقل. وفي سنة 1850، نُشِرَ باللغة الإنكليزية في صحيفة "رد ريبليكان" Red Republican في لندن، وقامت بترجمته السيدة هيلين ماكفارلين، وظهر عام 1871 في أميركا بثلاث ترجمات مختلفة على الأقل. وتُرجمَ إلى اللغة الفرنسية قبيل انتفاضة حزيران (يونيو) سنة 1848(2) وظهر أولا في باريس، وحديثًا في صحيفة "le socialiste"(لو سوسياليست)، الصادرة في نيويورك. وحاليا تُعَد ترجمة جديدة له، وبعد صدوره بالألمانية، لأول مرة، تُرجمَ إلى اللغة البولونية في لندن، وظهر في الستينات، باللّغة الروسية في جنيف، وتُرجمَ كذلك إلى اللغة الدانمركية مباشرة بعد صدوره (باللّغة الألمانية).

وإن تغيّرت الظروف كثيرًا في الأعوام الخمسة والعشرين

الأخيرة، فإن المبادئ العامة المعروضة في هذا البيان مازالت تحتفظ إجمالا، حتى يومنا هذا بصحّتها الكاملة. ويمكن إدخال بعض التحسينات الجزئية، هنا وهناك. فإن التطبيق العملي لهذه المبادئ، كما يشير البيان نفسه، يرتبط في كل زمان ومكان، بالظروف التاريخية القائمة ولذلك ينبغي أن لا تُعلّق مطلقًا أهمية خاصة على التدابير الثورية المقترحة في نهاية الفصل الثاني. ولو كتبنا هذا الفصل اليوم، لبدا بشكل آخر من أوجه متعددة. فاليوم نجد في البرنامج نقاطًا أصبحت قديمة، وذلك إزاء التقدم الهائل والمستمر الذي طرأ على الصناعة الكبيرة في الخمسة والعشرين عامًا الأخيرة، وما رافق هذا الرّقي من تقدّم مطّرد في التنظيم الحزبي للطبقة العاملة، وكذلك نتيجة التجارب العملية التي قدّمتها ثورة شباط (فبراير) أولا، وفيما بعد التجارب الأبعدَ أثرًا لكومونة باريس، حيث قبضت البروليتاريا لأول مرة على زمام السلطة السياسية لمدة شهرين. وبالتحديد قدّمت كومونة باريس البرهان على أن الطبقة العاملة لا يمكنها أن تتسلم الماكينة القائمة للدولة وأن تحركها في خدمة أهدافها الخاصة (أنظر الحرب الأهلية في فرنسا، نداء المجلس العام للجمعية الأممية للعمال، الطبعة الألمانية صفحة 19، حيث توجد هذه النقطة مفصّلة بشكل أوسع). وعدا ذلك، فمن البديهي أن نقد الأدب الإشتراكي يعاني من ثغرة حاليًا، لأنه يتوقف عند عام 1847. كذلك، فإن الملاحظات حول موقف الشيوعيين من أحزاب المعارضة المختلفة (الفصل الرابع) أي الملاحظات لاتزال اليوم

أيضًا صحيحة، من حيث أسسها، ولكنها أصبحت قديمة من حيث تفاصيلها، وذلك لأنّ الوضع السياسي قد تغيّر كليًا، ولأنّ التطور التاريخي قضى على معظم الأحزاب المذكورة هناك، في "الفصل الرابع".

بيد أن البيان أصبح وثيقة تاريخية لا نملك حقّ تغييرها. وربما تظهر فيما بعد، طبعة مرفقة بمقدّمة تُغطي الفترة الواقعة منذ سنة 1847 إلى الآن، فإن الطبعة الحالية جاءت على حين غرة ولم تمهلنا للقيام بهذا العمل.

كارل ماركس، فريدريك انجلس

لندن، 24 حزيران (يونيو) 1872

الطبعة الألمانية المصرّح بها من كارل ماركس وفريدريك إنجلس "البيان الشيوعي".

الهوامش

1- 1848 في فرنسا – الناشر

2- انتفاضة عمال باريس من 24 إلى 26 حزيران (يونيو) 1848 التي قمعها وزير الحربية Cavaignac بدموية ("المعركة الأولى الكبيرة بين البروليتاريا والبرجوازية") (انجلس) – الناشر

3- هذه الترجمة الفرنسية الجديدة لم تظهر – الناشر

مقدمة الطبعة الروسية الثانية لسنة 1882

في أوائل الستينات صدرت الطبعة الروسية الأولى لبيان الحزب الشيوعي عن مطبعة كولاكول، ترجمة باكونين. في ذلك الوقت لم يستطع الغرب أن يرى فيها (أي الطبعة الروسية للبيان) سوى طُرفة أدبية. ومثل هذا الرأي غدا اليوم مستحيلاً.

إن الفصل الختامي للبيان يظهر بكل وضوح، أي حيّز ضيق كانت تشغله آنذاك (كانون الأول ديسمبر 1847) الحركة البروليتارية : موقف الشيوعيين من مختلف أحزاب المعارضة في البلدان المختلفة. وحين يغيب خصوصًا ذكر روسيا والولايات المتحدة. فروسيا في هذا الوقت كانت تشكّل آخر إحتياطي كبير للرجعية الأوروبية بمجملها، بينما كانت الولايات المتحدة تمتص عن طريق الهجرة فائض أوروبا من البروليتاريا. إنّ هذين البلدين كانا يزوّدان أوروبا بالمواد الخام، ويشكلان في الوقت نفسه، سوقًا لتصريف منتجاتها الصناعية وبالتالي، كانا بشكل أو بآخر يُعتبَران دعامتي النظام الأوروبي القائم.

ولكم تغيّرت الأحوال اليوم. فالهجرة الأوروبية هي التي مكّنت أميركا الشمالية من إنتاج زراعي هائل زعزعت مزاحمته الملكية العقارية الأوروبية كبيرة كانت أم صغيرة. ويضاف إلى ذلك أن هذه الهجرة أتاحت للولايات المتحدة إستثمار مواردها الصناعية الهائلة بقوة وتصاعد من شأنهما أن يحطما بالضرورة،

وبفترة قصيرة، الإحتكار الصناعي الحالي لأوروبا الغربية وانكلترا بالذات. هذان السببان يؤثران ثوريًا على أميركا نفسها، فملكية المزارعين العقارية الصغيرة والمتوسطة، التي تشكل قاعدة النظام السياسي بمجمله، تتراجع شيئًا فشيئًا أمام منافسة المزارع الكبرى. وفي المناطق الصناعية تنامت، للمرة الأولى البروليتاريا عدديا وبلغ تمركز الأموال درجة خياليّة.

والآن روسيا ! لقد وجد أمراء أوروبا، وكذلك برجوازيتها خلال ثورة 1848-1849، في التدخل الروسي المنقذ الوحيد من البروليتاريا المستيقظة لتوّها. فأعلن القيصر زعيمًا للرجعية الأوروبية. أمّا اليوم فهو أسير حرب لدى الثورة في غاتشينا، وتشكّل روسيا طليعة العمل الثوري في أوروبا.

كانت مهمة البيان الشيوعي تكمن في إعلان التصفية الحتمية المقبلة للملكية البرجوازية الحديثة. لكننا نجد في روسيا إزاء التفتح المحموم للرأسمالية، والملكية العقارية البرجوازية الآخذة في النشوء، أن أكثر من نصف الأرض هو ملكية جماعية مشتركة للفلاحين، والسؤال الآن هو : هل يسع المشاعية الروسية حتى لو كانت شكلاً مندثرًا للملكية الجماعية القديمة، أن تنتقل مباشرة إلى الشكل الأرقى أي إلى الملكية الجماعية الشيوعية؟ أم عليها، بخلاف ذلك أن تمر قبل ذلك بعملية الإنحلال ذاتها التي عرفها التطور التاريخي للغرب ؟

إن الجواب الوحيد والممكن حاليًا على هذا السؤال هو الآتي: إذا استطاعت الثورة الروسية أن تكون إيذانًا لقيام ثورة بروليتارية في الغرب، بحيث تُكمّل إحداهما الأخرى، فإن بإمكان الملكية الجماعية الروسية للأرض أن تُصلح منطلقًا لتطوُّر شيوعي.

كارل ماركس، فريدريك انجلس

لندن، 21 كانون الثاني (يناير) 1882

وفقًا للمخطوطة

كارل ماركس، فريدريك إنجلس :

المؤلفات – الجزء 19، ص 295 –296

الطبعة الألمانية

مقدّمة الطبعة الألمانية، عام 1883

بكل أسف، عليَّ أن أوقّع وحدي مقدمة هذه الطبعة. فإنَّ ماركس، الرّجل الذي تُدين لهُ الطبقة العاملة كلّها، في أوروبا وأميركا، أكثر مما تُدين لأي شخص آخر، يرقُد الآن في مقبرة "هايغيت"، والخضير أخذ ينمو على قبره. وبعد موته (في 14 آذار مارس – 1883) لم يعد ممكنًا الحديث عن تنقيح البيان أو عن إكماله، بل بالأحرى، يبدو لي ضروريًا أن أسجّل هنا، مرّةً أخرى وبوضوح، ما يأتي :

إن الفكرة الأساسية والمحورية "للبيان"، هي أن الإنتاج الإقتصادي، والبنية المجتمعية التي تنجم عنهُ بالضرورة، يشكّلان، في كل عهد تاريخيّ، الأساس للتاريخ السياسي والفكري لهذا العهد، وبالتالي فإن التاريخ كله (منذ إنحلال المشاعية البدائية للأرض) كان تاريخ صراعات طبقية، صراعات بين طبقات مستغِلّة (بكسر الغين) وطبقات مُستغَلّة (بفتح الغين)، بين طبقات سائدة وطبقات مَسُودَة، في مختلف مراحل التطور المجتمعي. وهذا الصراع بلغ، الآن، مرحلة يتعذّر فيها على الطبقة المستَغَلّة (بفتح الغين) والمضطَهَدة (البروليتاريا) أن تتحرر من الطبقة المستَغِلّة (بكسر الغين) التي تضطهدها (البرجوازية)، بدون أن تُحرِّر في الوقت نفسه، وإلى الأبد، المجتمع بأسرهِ منَ الإستغلال، والاضطهاد، والصراعات الطبقية – وهذه الفكرة الرئيسية تعود إلى ماركس وحده دون سواه *.

لقد صرّحتُ بهذا الأمر مرارًا، لكن ينبغي، الآن أن يُذكر هذا التصريح، مرّة أخرى، في رأس البيان.

فريدريك إنجلس

لندن، 28 حزيران (يونيو) 1883

البيان، الطبعة الألمانية الثالثة

هوتنغن – تسوريخ 1883

* إن هذه الفكرة – كما ذكرت في مقدمة الطبعة الإنكليزية – المدعوة، حسب رأيي، إلى أن تُسجّل في علم التاريخ التقدم نفسه، الذي سجّلته نظرية داروين في علم الطبيعة، كنا نحن الإثنين قد اقتربنا منها تدريجيا قبل سنوات في عام 1845. أمّا إلى أي مدى استطعت، أنا نفسي أن أتقدّم في هذا الاتجاه، فإنّ ذلك يبدو في مؤلّفي "وضع الطبقة العاملة في إنكلترة". ولكن، عندما التقيت ماركس مجدّدا في ربيع عام 1845، في بروكسل، كان قد انتهى من وضع هذه الفكرة، وعرضها عليَّ بكلمات واضحة، بالوضع نفسه تقريبا، الذي لخصتها بهِ أعلاه (ملاحظة إنجلس للطبعة الألمانية عام 1890).

مقدمة الطبعة الإنكليزية، عام 1888

نُشِرَ "البيان" كبرنامج عمل لـ"عصبة الشيوعيين"، التي كانت في البداية منظّمة عمّالية ألمانية صرفًا، وغدت بعدئذ أممية. وبحكم الأوضاع، التي كانت تسود القارة الأوروبية قبل سنة 1848، كانت "العصبة" منظّمة سرّية. وفي مؤتمر العصبة الذي انعقد في لندن في تشرين الثاني (نوفمبر) 1847، كُلِّفَ ماركس وإنجلس بإعداد برنامج حزبي شامل، نظري وتطبيقي، لنشره. وبعد صياغة هذا البرنامج باللّغة الألمانية، أرسِلَت مخطوطة إلى لندن للطبع، في كانون الثاني (يناير) 1848، أي قبل أسابيع قليلة من ثورة 24 شباط (فبراير) الفرنسية عام 1848. وفي باريس صدرت ترجمة فرنسية للبيان قُبَيل إنتفاضة حزيران (يونيو) 1848. وصدرت الترجمة الإنكليزية الأولى للسيدة هيلين ماكفارلن، سنة 1850، في صحيفة جورج جوليان هارني "ريد ريبلكان" في لندن. كذلك صدرت له طبعة باللّغة الدانماركية، وأخرى باللغة البولونية.

إن هزيمة إنتفاضة حزيران (يونيو) الباريسية عام 1848، تلك المعركة الكبيرة والأولى من نوعها بين البروليتاريا والبرجوازية، فرض مجددًا تراجعًا مؤقتًا للنضالات السياسيّة والمجتمعيّة للطبقة العاملة الأوروبية. ومنذ ذلك الحين برز مجددًا الصراع على السلطة، كما حصل في زمن ما قبل ثورة شباط (فبراير)، بين مختلف فئات الطبقة المالكة، بوجه الحصر، فيما اضطُرّت الطبقة

العاملة إلى قصر نضالها على المطالبة بحرية العمل السياسيّ، وإلى الوقوف في موقع الجناح اليساري المتطرّف للبرجوازية الراديكالية. وحيثما تظهر دلائل إستمرار وجود حركات بروليتارية قائمة بذاتها، كان يجري قمعها بقسوة وعنف. وهكذا توصّل البوليس البروسي إلى إقتفاء أثر الهيئة المركزية لعصبة الشيوعيين، التي كانت تتخذ من مدينة كولن، وقتئذٍ، مقرًا لها. فتم اعتقال أعضائها.

وبعد توقيف دام ثمانية عشرا شهرًا، جرى اقتيادهم إلى المحكمة في تشرين الأول (أكتوبر) 1852، ودامت "محاكمة كولن للشيوعيين" الشهيرة من 4 تشرين الأول (أكتوبر) إلى 12 تشرين الثاني (نوفمبر)، وانتهت بالحكم على سبعة من المعتقلين بالأشغال الشاقة مددًا تتراوح بين ثلاث وست سنوات. وفورًا بعد صدور الحكم، عمد الأعضاء الباقون إلى حلّ العصبة شكليًا. ومذ ذاك، بدا البيان وكأنه غدا أمرًا منسيًا.

وعندما عادت الطبقة العاملة الأوروبية واستجمعت قوى كافية للقيام بهجوم جديد على الطبقة المسيطرة، نشأت الجمعية العمالية الأممية. لكن هذه الجمعية، التي أُنشِئت على الأخص بهدف صهر البروليتاريا الأوروبية والأميركية المستعدّة للنضال في جسم واحدٍ، لم تستطع أن تنادي حالا بالمبادئ والأسس الواردة في "البيان". فهذه الأممية كانت تحتاج إلى برنامج واسع تقبله النقابات الإنكليزية، ويقبله اللاساليون[1] في ألمانيا، وأتباع برودون الفرنسيون والبلجيكيون والإيطاليون والإسبانيون. وماركس، الذي

صاغ هذا البرنامج برضى جميع الأحزاب، كان يثق الثقة كلّها بالنمو الفكري للطبقة العاملة، هذا النمو الذي لا بدّ من أن ينتج بالضرورة عن العمل الموحّد، والنقاش المشترك. إن الأحداث والتقلّبات في النضال ضد رأس المال، وكذلك الهزائم أكثر من الإنتصارات، لم تتخلف عن توعية الناس إلى قصور مختلف ما كان محبّبًا إليهم من تحليلات براقة مبنيّة على أسس فارغة وخدّاعة، فمهّدت الطريق إلى إدراكهم إدراكًا كاملا أهمية الشروط الحقيقيّة لتحرُر الطبقة العاملة. وكانَ ماركس محقًا في ذلك. فعندما تفكّكت الأممية، سنة 1874، تركت العمال في وضع يختلف كليًا عن الوضع الذي كانوا فيه عند تأسيسها عام 1864. فالبرودونية في فرنسا، واللاسالية في ألمانيا، كانتا على وشك الزوال، والنقابات الإنكليزية المحافظة، مع أنها حلّت ارتباطها بالأممية قبل زمن، بدأت تقترب تدريجيًا من النقطة التي استطاع منها رئيسها أن يصرّح باسمها، في السنة الماضية في سوانسي، أن "الإشتراكية القارية لم تعد تخيفنا"(2). وفي الحقيقة، أحرزت أسس "البيان" تقدّمًا كبيرًا بين صفوف العمّال في جميع البلدان.

وعلى هذا الوجه عاد "البيان" نفسه إلى الواجهة مجددًا. فابتداءً من عام 1850 أعيد طبع النص الألماني مرارًا عديدة في سويسرا وإنكلترة وأميركا، وفي سنة 1872 تُرجم مجددًا إلى الإنكليزية في نيويورك حيث نُشرت الترجمة في صحيفة "وودهول اند كلافنس ويكلي" Woodhull and Claflins Weekly

وعلى أساس هذه الترجمة الإنكليزية أعدّت ترجمة فرنسية أخرى في جريدة "السوسياليست" Le Socialiste في نيويورك أيضًا. ومنذ ذلك الحين صدرت في أميركا، على الأقل ترجمتان إنكليزيتان مشوّهتان إلى هذا الحد أو ذاك، وأعيد طبع واحدة منها في إنكلترة. أمّا الترجمة الروسية الأولى لباكونين فصدرت حوالي عام 1863 عن مطبعة "كولوكول" لصاحبها هيرتسن في جنيف. كذلك أعدت المناضلة فيرا زاسوليتش ترجمة روسية ثانية، في جنيف أيضًا سنة 1882(3). وتوفرت طبعة دانماركية جديدة في "المكتبة الإشتراكية الديموقراطية" في كوبنهاغن سنة 1885، وترجمة فرنسية جديدة في "السوسياليست" في باريس عام 1886(4). وبعد هذه الأخيرة أعدّت ترجمة اسبانية نُشرت في مدريد سنة 1886، تتعذر معرفة عدد الطبعات الألمانية التي صدرت بعدئذ. ويُعتَقد أنها بلغت اثنتي عشرة طبعة على الأقل. وقبل بضعة أشهر كان ينبغي أن تظهر في القسطنطينية ترجمة أرمنية، إلا أنّها لم ترَ النور لأن ناشرها، كما قيل لي، لم يتجرأ على نشر كتاب يحمل إسم ماركس، بينما رفض المترجم أن ينتحل الترجمة ويعتبرها من تأليفه. وقد ترامى إلى سمعي أن ترجمات صدرت في لغات أخرى لكنني لم أرها. وهكذا يعكس تاريخ "البيان" إلى حد كبير، تاريخ الحركة العمّالية المعاصرة. دون أدنى شك يعتبر البيان في الزمن الراهن، أوسع المؤلفات الإشتراكية انتشارًا، وأكثرها أممية. وبصفته برنامجًا مشتركًا يحظى باعتراف ملايين العمال من سيبيريا إلى كاليفورنيا.

ومع ذلك لم نتمكّن، عند وضعه، من أن نطلق عليه إسم البيان الإشتراكي. ففي عام 1847 كانت تسمية "اشتراكيين" تُطلق من جهة، على أتباع مختلف النظم الطوباوية: أتباع أوين في إنكلترة، شارل فورييه في فرنسا، الذين تقلّصوا إلى شِيَع متفرقة سارت تدريجيًا على طريق الإنقراض، ومن جهة أخرى، على المشعوذين المجتمعين من مختلف أصناف أدعياء المعرفة، الذين كانوا يَعِدون بالقضاء على الأحوال المجتمعية السّيئة، على أنواعها، بوسائل ترقيعية لا تُشكّل خطرًا على رأس المال والرّبح. وفي كلتا الحالتين كان هؤلاء الناس يقفون خارج الحركة العمّالية، وبالأحرى كانوا يبحثون عن الدّعم بين فئات "المثقفين". أما القسم من الطبقة العاملة، الذي كان مقتنعًا بعدم كفاية التغيير السياسي الصّرف، وكان ينادي بضرورة التحول المجتمعي الشامل، فأطلق على نفسه، عهدئذٍ، اسم "الشيوعي". لقد كان ذلك ضربًا من الشيوعية التي مازالت خامًا، شيوعية غير مصقولة وغريزية صرفًا، بَيد أنها اقتربت من النقاط الرئيسية وبلغت قوّتها، في وسط الطبقة العاملة، درجة مكّنتها من إحداث الشيوعية الطوباوية على يد كابه في فرنسا، ومن خلال فايتلنغ في ألمانيا. وهكذا كانت الاشتراكية عام 1847 حركة الطبقة المتوسّطة، وكانت الشيوعية حركة الطبقة العاملة. ففي القارة، على الأقل، كانت الاشتراكية "لائقة بالصالونات"، بينما كانت الشيوعية نقيضها كليًا. وبما أنّ رأينا كان من البداية، أنّ "تحرير الطبقة العاملة ينبغي أن يكون من صنع الطبقة العاملة نفسها"، فلم يرق شكّ إلى أمر اختيارنا واحدًا من الإسمين، وأكثر من ذلك، لم يرد في ذهننا قطّ

أن نتخلى عن هذه التسمية. ومع أن "البيان" كان ثمرة عمل مشترك، قمنا به نحن الإثنين، فإنني أرى أن من واجبي أن أؤكد أن الفكرة الأساسية، التي تشكّل نواته، إنما تعود إلى ماركس وحده. وهذه الفكرة تنحصر في أن النمط الإقتصادي للإنتاج والتبادل السائد في كل مرحلة تاريخية، والهيكلية المجتمعية المنبثقة عنه بالضرورة، يُشكّلان الأساس الذي يقوم عليه التفكير السياسي والفكري لهذه الحقبة، والذي يمكن من خلاله فقط تفسير هذا التاريخ، ومن ثمّ، فإن تاريخ البشرية كله (منذ إنحلال النظام القبلي البدائي وملكيته الجماعية للأرض) كان تاريخ الصراعات الطبقية، الصراعات بين المستغِلّين (بكسر الغين) والمستغَلّين (بفتح الغين)، بين طبقات حاكمة وأخرى محكومة مُضطهَدة (بفتح الهاء)، وأن تاريخ هذه الصراعات الطبقية يعرض سلسلة من الارتقاء بلغت، حاليًا، درجة، لا يسع معها الطبقة المستغَلّة (بفتح الغين) والمضطهَدة — أي البروليتاريا — أن تتحرّر من نير الطبقة المستغِلّة (بكسر الغين) الحاكمة — أي البرجوازية — بدون أن تُحرّر، في الوقت نفسه، المجتمع بأسره نهائيًا من كل استغلال واضطهاد، ومن كل الفوارق الطبقية والصراعات الطبقية.

إن هذه الفكرة مدعوّة، في رأيي، إلى أن تُرسي في علم التاريخ التقدم نفسه، الذي كرّسته نظرية داروين في علم البيولوجيا. وكنّا نحن الإثنين قد اقتربنا منها تدريجيا قبل عدة سنوات من 1845. أما إلى أي مدى استطعت، أنا نفسي، أن أتقدّم في هذا الاتجاه، فإن ذلك يظهر على أفضل وجه في مؤلّفي

"وضع الطبقة العاملة في إنكلترة". ولكن عندما التقيت ماركس مجددًا، في ربيع 1845 في بروكسل، كان قد انتهى من وضع هذه الفكرة فعرضها عليَّ بكلمات واضحة الوضوح نفسه تقريبا، الذي ألخصها به أعلاه. ومن مقدمتنا المشتركة للطبقة الألمانية عام 1872أستشهد بما يأتي :

"وإن تغيّرت الظروف كثيرا، في الأعوام الخمسة والعشرين الأخيرة، فإن المبادئ العامة المعروضة في هذا البيان ماتزال تحتفظ، إجمالاً حتى يومنا هذا، بصحتها بكاملها. ويمكن إدخال بعض التحسينات الجزئية هنا وهناك. وكما يشير البيان نفسه، فإن التطبيق العملي لهذه المبادئ يرتبط في كل مكان وزمان بالظروف التاريخية القائمة، ولذا ينبغي ألّا تعلق مطلقًا، أهمية خاصة على التدابير الثورية المقترحة في نهاية الفصل الثاني. ونحن لو كتبنا هذا المقطع اليوم لبَدا، من أوجه متعددة، بشكل آخر. فإننا نجد في البرنامج حاليا نقاطًا أصبحت عتيقة، نظرًا إلى التقدم الهائل والمستمر، الذي طرأ على الصناعة الكبيرة في الأعوام الخمسة والعشرين الأخيرة، وما رافق هذا الرقيّ من تقدّم مطّرد في التنظيم الحزبي للطبقة العاملة، ونظرًا إلى نتيجة التجارب العملية، التي أعطتها ثورة شباط (فبراير) أولا، ثم التجارب الأبعد أثرًا لكومونة باريس، التي قبضَت فيها البروليتاريا، للمرة الأولى على زمام السلطة السياسية خلال شهرين. وتحديدًا قدّمت كومونة باريس البرهان على أنّ "الطبقة العاملة لا يمكنها أن تتسلم آلة الدولة القائمة، وأن تحركها في خدمة أهدافها الخاصة" (أنظر "الحرب

الأهلية في فرنسا"، نداء المجلس العام لجمعية الشغيلة الأممية، الطبعة الألمانية، ص 19، حيث بُسطت هذه الفكرة بصورة أوسع). وفضلا عن ذلك، من الواضح أن نقد الأدب الإشتراكي يعاني في الحقبة الراهنة، من ثغرة، نظرًا إلى أنه يتوقف عند عام 1847. كما أن الملاحظات بشأن موقف الشيوعيين من مختلف أحزاب المعارضة (الفصل الرابع)، وإن كانت ماتزال اليوم أيضًا صحيحة من حيث الخطوط الرئيسية، فقد أصبحت عتيقة من حيث تفاصيلها، لأن الوضع السياسي تغيّر كليًا، والتطور التاريخي قضى على معظم الأحزاب المعددة فيها.

"بيد أن البيان هو وثيقة تاريخية لا تملك حقّ تعديلها".

والترجمة الحالية هي للسيد صموئيل مور، مترجم القسم الأكبر من مؤلف ماركس "رأس المال"، وقد أعدنا نحن الإثنين[5] النظر فيها. وأضفت إليها بعض الحواشي، لشرح بعض الأحداث التاريخية.

فريدريك إنجلس

لندن، 30 كانون الثاني (يناير) 1888

الهوامش

1- كان لاسال يقر شخصيًا أمامنا بأنه من مريدي ماركس، وبهذه الصفة ينطلق من أرضية "البيان". بيد أنه في السنوات 1862-1864، لم يتعدَّ في نشاطه التحريضي العلني حدود المطالبة بتعاونيات إنتاجية، تدعمها الدولة بالإعتمادات (ملاحظة إنجلس).

2- يشير إنجلس هنا إلى الكلمة التي ألقاها رئيس مجلس النقابات، بيغان، في المؤتمر السنوي سنة 1887.

3- يذكر إنجلس في الخلاصة التي كتبها لمقاله "العلاقات المجتمعية في روسيا" سنة 1894، أن ج.ن. بليخانوف هو الذي وضع الترجمة المذكورة. ويشير بليخانوف نفسه، سنة 1900، في طبعة لاحقة للبيان أنه هو من قام بهذه الترجمة — الناشر

4- هذه الترجمة الفرنسية هي لإبنة ماركس، لورا لافارغ. وقد نُشِرت عام 1885، لا في عام 1886 — الناشر

5- أي إنجلس وصموئيل مور — الناشر.

مقدمة الطبعة الألمانية، عام 1890

بعد أن كتبت ما تقدّم[1]، أصبحت الحاجة ماسّة إلى إصدار طبعة جديدة من "البيان" باللغة الألمانية، خصوصًا أن أمورًا مختلفة ترتبط بالبيان تستدعي ذكرها هنا.

لقد ظهرت ترجمة روسية ثانية للبيان عام 1882 في جنيف من إعداد فيرا زاسوليتش، وشاركت ماركس في صياغة مقدمتها، وللأسف فقدت النسخة الخطية الألمانية لهذه المقدّمة، ولذا توجّب عليّ أن أترجمها عن الروسية، الأمر الذي لا يعود، على كل حال، بفائدة على هذا العمل[2].

وهذا هو نص هذه المقدمة (هنا يورد إنجلس نص مقدمة الطبعة الروسية الثانية عام 1882، الذي أثبتناه بصيغته الأصلية قبل صفحات — الناشر).

وفي الوقت نفسه ظهرت ترجمة جديدة "للبيان" باللغة البولونية، في جنيف، بعنوان "مانيفست كوموتيستي"

وإلى جانب ذلك صدرت ترجمة دانماركية جديدة عام 1885 عن "المكتبة الإشتراكية الديموقراطية، كوبنهاغن". ولكنها للأسف غير كاملة، إذ أُسقِطَت منها مقاطع أساسية سبّب نقلها، كما يبدو، بعض المشاكل للمترجم، ويلاحظ هنا وهناك آثار إهمال تبدو مزعجة، خصوصًا ان المرء عندما يطّلع على

العمل يلاحظ أن المترجم كان يستطيع أن يأتي بترجمة أفضل، لو بذل عناية أكبر.

وفي عام 1886، ظهرت ترجمة فرنسية جديدة في صحيفة "السوسياليست" في باريس، وهي أفضل الترجمات التي ظهرت حتى الآن.

وفي العام نفسه ظهرت، عن هذه الترجمة الفرنسية، ترجمة باللغة الإسبانية نشرت أولا في جريدة "El Socialista" في مدريد، ثم في كرّاس بعنوان :

"Manifesto del Partido Communista", por Carlos Marx y f. Engels. Mardri. Administraction de "el Socialista". Hernan Cortes 8.

ومن باب التندُّر، أحبُّ أن أذكر أن ترجمة باللّغة الأرمنية عُرِضت مخطوطتها سنة 1887 على ناشر من القسطنطينية، ولكن هذا الرجل المحترم لم يتجرأ على طبع شيء يحمل اسم ماركس، فرأى أنه من الأفضل وضع إسم المترجم مكان اسم المؤلف، ولكن هذا الآخر رفض ذلك.

وفي إنكلترا طبعت، مرارًا عديدة، الترجمات الأميركية غير الصحيحة إلى هذا الحدّ أو ذاك. وظهرت أخيرًا عام 1888 ترجمة أمينة للنص الأصلي أنجزها صديقي صموئيل مور، وشاركته في مراجعتها، مرة أخرى، قبل طبعها، وعنوان هذه الترجمة، هو:

"Manifesto of the Communist party, by Karl Marx and Frederick Engels. Authorized English Translation Edited and Annotated by Frederick Engels. 1888. London, William Reeves, 185 Fleet st. E. c"

وقد نُقِلت إلى الطبعة الحالية بعض الملاحظات الواردة في هذه الترجمة الإنكليزية.

فالبيان كانت له حياته الخاصة. ففي لحظة صدوره، سارعت طليعة الإشتراكية العلمية، التي كانت لاتزال قليلة العدد، إلى الترحيب به بحماس (كما تشهد على ذلك الترجمات الوارد ذكرها في المقدمة الأولى).

لكن سرعان ما تراجع إلى مركز ثانويّ تحت ضغط الرجعية، التي ظهرت بقوة عقب هزيمة العمال الباريسيين في حزيران (يونيو) 1848، ومُنِع أخيرًا "بإسم القانون"، عند صدور الحكم على شيوعيي كولن، في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1852[3]. وبغياب الحركة العمّالية، التي قامت وانتعشت في ثورة شباط (فبراير) عن المسرح العام، غاب "البيان" أيضًا.

وعندما استعادت الطبقة العاملة الأوروبية قواها بقدر كاف للهجوم مجددًا على سلطة الطبقات المسيطرة ونشأت جمعية الشغيلة الأممية، وكان هدفها، صهر مجمل الطبقة العاملة الأوروبية والأميركية المناضلة، في جيش كبير واحد، لم يكن يسع هذه الجمعية أن تنطلق بصورة مباشرة من المبادئ الأساسية المعروضة

في البيان. فقد كان عليها أن تضع برنامجًا لا يقفل الباب أمام النقابات الإنكليزية، وأمام البرودونيين الفرنسيين والبلجيكيين والإيطاليين والإسبانيين، وأمام اللاساليين[4] الألمان. وهذا البرنامج -الذي هو توطئة للنظام الداخلي للأممية[5]- وضعه ماركس بمهارة اعترف بها باكونين والفوضويون أنفسهم. وفي سبيل الإنتصار النهائي للمبادئ الواردة في البيان، اعتمد ماركس على التقدم الفكري للطبقة العاملة فحسب، هذا التقدم الذي ينبغي أن ينتج بالضرورة عن التباحث والعمل المشترك. فالأحداث وتقلبات النضال ضد رأس المال، والانكسارات التي كانت أثر من الانتصارات، لم يكن يسعها أن تتخلف عن إشعار المناضلين بقصور كل علاجاتهم السابقة، وعن جعلهم أكثر قابلية لإدراك الشروط الحقيقية لتحرير العمال إدراكًا عميقًا. وكان ماركس محقًا. فبعد حل الأممية، كانت الطبقة العاملة في عام 1874 تختلف كليًا عن تلك التي كانت في عام 1864 عند تأسيس الأممية. فالبرودونية في البلدان اللاتينية، واللاسالية، بحصر المعنى، في ألمانيا، كانتا على وشك الزوال. وحتى النقابات الإنكليزية، المغالية في محافظتها، كانت قد بدأت تقترب تدريجيًا من النقطة التي استطاع منها رئيس مؤتمرها، المنعقد في سوانسي عام 1887، أن يعلن بإسمها: "أن الإشتراكية القارية لم تعد تخيفنا". لكن الإشتراكية القارية سنة 1887، كانت تتطابق كليًا تقريبا مع النظرية المعلنة في "البيان". وهكذا فإن تاريخ "البيان" يعكس إلى حد معين تاريخ الحركة العمالية الحديثة منذ عام 1848. وفي

الزمن الزاهن، فإنه يعتبر دون شك، العمل الأكثر أممية، والأوسع إنتشارًا في الأدب الإشتراكي كله، والبرنامج المشترك لملايين العمال في جميع البلدان من سيبيريا إلى كاليفورنيا.

ومع ذلك لم يكن يسعنا عند ظهوره أن نطلق عليه عنوان "البيان الاشتراكي". ففي 1847، كانت كلمة إشتراكيين تشمل نوعين من الناس: من جهة أتباع مختلف النظم الطوباوية، وأخصهم أتباع أوين في إنكلترة، وفورييه في فرنسا، الذي تقلصوا إلى طوائف متفرقة على طريق الزوال، ومن جهة أخرى، المشعوذين المجتمعيين من كل شاكلة وطراز، الذين كانوا يريدون القضاء، بأكداس الأدوية الشافية من جميع الأمراض، وبكل أنواع الترقيع، على جميع ألوان البؤس المجتمعي، بدون إلحاق أي ضرر برأس المال والربح. وفي كِلتا الحالتين، كان هؤلاء الناس يقفون خارج الحركة العمالية، وبالأحرى كانوا يبحثون عن الدعم بين فئات "المثقفين". أما القسم من العمال، الذي كان مقتنعًا بعدم كفاية التغييرات السياسية الصرف، وكان ينادي بتحويل المجتمع تحويلا جذريا شاملا، هذا القسم كان يسمّي نفسه وقتئذٍ "شيوعيًا". وكانت شيوعيته غير مصقولة، شيوعية غريزية، فظة أحيانًا. لكنها كانت قوية قوة كافية مكّنتها من إحداث منهجين للشيوعية الطوباوية: في فرنسا "إيكاريه" كابه، وفي ألمانيا منهج "فايتلنغ". ففي عام 1847، كانت الإشتراكية تدل على حركة برجوازية، بينما كانت الشيوعية تدل على حركة عمالية. وكانت الإشتراكية، في القارة على الأقل، تُفتح لها أبواب الصالونات،

بينما كان الأمر، بالنسبة إلى الشيوعية، على عكس ذلك تمامًا. وبما أننا كنا نمثّل، بإصرار شديد، الرأي في أنّ "تحرير الطبقة العاملة ينبغي أن يكون من صنع الطبقة العاملة نفسها"، فلم يرق الشك إلينا لحظة، في اختيار واحدٍ من الإسمين. ومنذ ذلك الحين لم يخطر لنا قطّ أن نتخلّى عن هذه التسمية – الشيوعية.

"أيها البروليتاريون، في جميع البلدان، اتحدوا".

إن اصواتًا قليلة فقط استجابت لنا عندما أطلقنا هذا النداء في العالم، قبل إثنين وأربعين عامًا، عشيّة الثورة الباريسية الأولى، التي مُثّلت فيها البروليتاريا بمطالبها الخاصة. لكن، في الثامن والعشرين من أيلول (سبتمبر) 1864، إتّحد بروليتاريو معظم بلدان أوروبا الغربية، ليشكّلوا جمعية الشغيلة الأممية المجيدة الذكر، بَيدَ أن هذه الأممية لم تعش سوى تسع سنوات. لكن ما من شاهد أفضل من يومنا هذا، على أنّ التحالف الثابت، الذي أوجدته الأممية بين بروليتاريي جميع البلدان لايزال موجودًا، وهو اليوم أقوى منه في أيّ وقت مضى. وفي هذه اللحظة، وأنا أكتب هذه الأسطر، تستعرض البروليتاريا الأوروبية والأميركية قواها المعبّأة، للمرة الأولى، في جيش واحد، تحت علم واحد، من أجل هدف مباشر واحد : ألا وهو التثبيت القانوني ليوم العمل بمعدّل ثماني ساعات، الذي نادى به مؤتمر الأممية في جنيف 1866، وأكّده مجددًا المؤتمر العمّالي في باريس سنة 1889. فإنّ عَرض

هذا اليوم سيبيّن للرأسماليين، وللملاكين العقاريين، في جميع البلدان، أن بروليتاريي جميع البلدان هم متحدون بالفعل.

الا ليت ماركس إلى جانبي، ليرى ذلك بأمّ عينيه !.

فريدريك إنجلس

لندن، اول أيار (مايو) 1890

الهوامش

1- يقصد إنجلس مقدّمته للطبعة الألمانية، عام 1883 – الناشر.

2- إن النص الألماني للمقدمة، التي اشترك ماركس وإنجلس في وضعها للطبعة الروسية الثانية "لبيان الحزب الشيوعي"، والتي ظنّ إنجلس أنه فقدها، وُجِدَت محفوظة في أرشيف معهد الماركسية – اللينينية لدى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الإتحاد السوفياتي، وهي التي أثبتنا ترجمتها في هذا الكتاب – الناشر.

3- في كولن، جرى اقتياد أحد عشر عضوًا من عصبة الشيوعيين إلى المحاكمة بتهمة خيانة الوطن. وقد أسنِدَت هذه التهمة إلى تزوير وقائع جلسات الهيئة المركزية للعصبة، وإلى تزويرات أخرى لفّقها البوليس السري البروسي. وفي مقال "حقائق حول محاكمة الشيوعيين في كولن"، فضح ماركس الدوافع السياسية الخفية لهذه المحاكمة، وعرّى جهاز البوليس البروسي، وفضح أساليبه الدنيئة.

4- كان لاسال يقرّ شخصيًا أمامنا بأنه من مريدي ماركس، وبهذه الصفة ينطلق من أرضية "البيان". بينما يختلف الأمر بالنسبة إلى

بعض أتباعه : أتباع لم يتجاوزوا حدود مطالبه بتعاونيات إنتاجية تدعمها الدولة بالإعتمادات، وهم يقسمون الطبقة العاملة بمحملها إلى قسمين : قسم يعتمد على الدولة، وقسم يعتمد على نفسه (ملاحظة المجلس).

5- عُقِدَ المؤتمر الأول لجمعية الشغيلة الأممية من 3 إلى 8 أيلول (سبتمبر)، سنة 1866، في جنيف. وارتكزت أهم مقررات هذا المؤتمر على كل ما كتبه ماركس :" توجيهات إلى مندوبي المجلس المركزي المؤقت حول مختلف القضايا". فأقر المؤتمر ستة من التوجيهات التسعة التي وضعها ماركس، ومن بينها قرار حول تحديد يوم العمل. وانعقد المؤتمر العمالي الإشتراكي العالمي — الذي اصبح المؤتمر التأسيسي للأممية الثانية — في باريس، من 14 إلى 20 تموز (يوليو)، سنة 1889، وهذا المؤتمر وضع أسسًا لتشريع دولي لحماية العمال. وقرر تنظيم تظاهرات جماهيرية في كل بلدان العالم، بتاريخ أول أيار (مايو) سنة 1890، من أجل تحديد يوم العمل بثماني ساعات، ومن أجل التضامن العالمي. وهذا القرار كان ميلادًا لهذا اليوم النضالي للطبقة العاملة.

مقدمة الطبعة البولونية، عام 1892

إن الحاجة إلى إصدار طبعة بولونية جديدة "للبيان الشيوعي"، أمر يدعو إلى تأمّلات كثيرة.

بداءةً لا بد من الملاحظة أن البيان أصبح، في الآونة الأخيرة، نوعًا من ضوء يُلقى على تقدُّم الصناعة الكبرى في القارة الأوروبية. فبمقدار ما تنمو هذه الصناعة في بلد معيّن، تتعاظم نزعة العمّال في هذا البلد إلى التبحُّر في وضعهم، بصفتهم طبقة عاملة بالنسبة إلى الطبقات المالكة. فتنمو الحركة الإشتراكية بينهم ويغدو البيان موضوع طلب متزايد. وهكذا، بناء على عدد النسخ الموزّعة (من البيان) بلغة البلد، يُمكن تحديد — لا وضع الحركة العاملة فحسب — بل أيضًا درجة تطوّر الصناعة الكبيرة في هذا البلد، وبدقة كافية.

إذن فالطبعة البولونية الجديدة هي برهان على التقدم القاطع للصناعة البولونية. ولا سبيل إلى الشك في أن هذا التقدم قد حصل بالفعل، إبّان السنوات العشر، التي مرّت منذ ظهور الطبعة الأخيرة. فإن مملكة بولونيا، بولونيا المؤتمر[1]، قد تحولت إلى منطقة صناعية كبيرة في الامبراطورية الروسية. فبينما تتبعثر الصناعة الروسية الكبيرة في أماكن كثيرة، قسم بالقرب من خليج فنلندا، وآخر في الوسط (موسكو وفلاديمير)، وثالث على شاطئ البحر الأسود وبحر آزوف، وأقسام أخرى هنا وهناك، فإن

الصناعة البولونية تتجمّع في رقعة صغيرة نسبيًا، وتشعر بفوائد هذا التجمع وبأضراره على حدّ سواء. وهذه الفوائد استبانها الصناعيون الروس المنافسون حين طالبوا، رغم رغبتهم الشديدة "رَوسَنة" البولونيين، بوضع قوانين حماية (ضرائب جمركية) على البولونيين. وفي ما يتعلق بالأضرار – بالنسبة إلى الصناعيين البولونيين والحكومة الروسية – فإنها تتجلّى في الإنتشار السريع للأفكار الإشتراكية بين العمال البولونيين، وفي إزدياد الطلب على "البيان".

بيد أنّ هذا التطور السريع للصناعة البولونية، الذي فاق تطور الصناعة الروسية، يقدم بدوره برهانًا جديدًا على حيوية الشعب المتأصلة، وضمانة جديدة لانبعاثه القومي المتوقع. والحال فإنّ إنبعاث بولونيا قوية ومستقلة لا يختص بالبولونيين فحسب، بل يختص بنا جميعًا. فلا يمكن أن يكون هناك تعاون أممي صادق بين الأمم الأوروبية إلا إذا كانت كل أمة مستقلّة كل الإستقلال على أرضها. وثورة 1848، التي كان لا بد للمناضلين البروليتاريين من أن ينجزوا، في خلالها، تحت علَم البروليتاريا، عمل البرجوازية، قد حققت عن طريق مُنفِّذي وصيتها – لويس بونابرت وبيسمارك – إستقلال إيطاليا وألمانيا والمجر (هنغاريا). أمّا بولونيا التي عملت للثورة منذ 1792 أكثر من هذه البلدان الثلاثة مجتمعة، فقد تُركت تلاقي مصيرها حين رزحت سنة 1863 تحت ضغط قوة روسية تفوق قوتها عشرة أضعاف. ولم يستطع النبلاء لا حماية استقلال بولونيا ولا انتزاعه من جديد،

والبرجوازية لا تبالي حاليًا بهذا الاستقلال، ولا تقول أثر. ومع ذلك يبقى الإستقلال ضرورة للتعاون المنسجم بين الأمم الأوروبية. والبروليتاريا البولونية الفتيّة هي وحدها القادرة على أن تنتزعه، وأن تصونه بنفسها. وذلك، لأن استقلال بولونيا ضروري لعمّال سائر أوروبا بقدر ما هو ضروري للعمال البولونيين أنفسهم.

فريدريك إنجلس

لندن، 10 شباط (فبراير) 1892

1- بولونيا المؤتمر، تسمية للقسم البولوني، الذي الحق بروسيا، بالإسم الرسمي : مملكة بولونيا، بموجب مقررات مؤتمر فيينا 1814 -1815

مقدمة الطبعة الإيطالية، عام 1892

إلى القارئ الإيطالي

توافق صدور "بيان الحزب الشيوعي"، تقريبًا، مع تاريخ آذار (مارس) 1848، مع ثورتي ميلانو وبرلين : إنتفاضتين مسلحتين لأمّتين، إحداهما في وسط القارة الأوروبية، والأخرى في وسط بلدان البحر المتوسط، أمتين أضعفهما حتى ذلك الحين تجزّؤهما وشقاقاتهما الداخلية، الأمر الذي أوقعهما تحت السيطرة الأجنبية. فبينما كانت إيطاليا تخضع لإمبراطور النمسا، كانت ألمانيا تعاني من الرزوح تحت نير قيصر عموم روسيا معاناة مماثلة، وإن كانت لاتزال أقل مباشرة. ونتائج تاريخ الثامن عشر من آذار (مارس) 1848، حررت إيطاليا وألمانيا من هذا الخزي. وإن كانت هاتان الأمتان الكبيرتان قد عادتا إلى حالهما بين 1848و1871، واستردتا بهذا الشكل أو ذاك استقلالهما، فهذا يعود، بحسب ماركس، إلى أن أولئك الذين قمعوا ثورة 1848، كانوا قد أصبحوا هم أنفسهم منفّذي وصيّتها رغمًا عنهم.

ففي كل مكان كانت هذه الثورة من صنع الطبقة العاملة. فهي (الطبقة العاملة) التي رفعت المتاريس، وهي التي قدّمت التضحيات. بَيد أنّ عمّال باريس وحدهم كانوا مصممين، وهم يسقطون الحكومة، على إسقاط البرجوازية أيضًا. ولكن رغم وعيهم التناقض الحتمي بين طبقتهم شخصيا والبرجوازية، فإن

التقدم الإقتصادي للبلاد، والتأهيل الفكري لجموع العمال الفرنسيين لم يكونا بعد قد بلغا المستوى المؤاتي للتحويل المجتمعي. ولذا قطفت الطبقة الرأسمالية بالنتيجة ثمار الثورة. وفي البلدان الأخرى.— إيطاليا، ألمانيا، النمسا، والمجر — لم يفعل العمال، منذ البداية، سوى تمكين البرجوازية من الوصول إلى السلطة. لكن إقامة سُلطة البرجوازية، في أيّ بلد، امرٌ مستحيل بدون الإستقلال الوطني. ولذا كان على ثورة 1848 أن تحمل معها في مجراها وحدة واستقلال الأمم التي كانت محرومة منها حتى ذلك الحين : إيطاليا، ألمانيا، والمجر. والآن، جاء دور بولونيا.

وهكذا، إذا لم تكن ثورة 1848 ثورة إشتراكية، فإنها مهّدت الطريق، وهيّأت الظروف لهذه الأخيرة، فإن النظام البرجوازي، الذي أطلق العنان في جميع البلدان لنموّ الصناعة الكبيرة، قد أوجد في كل مكان، على النحو ذاته في السنوات الخمس والأربعين الأخيرة، بروليتاريا جرّارة موطّدة وقويّة : وهكذا ولّد، كما يقول البيان، حفّري قبره. فبدون إعادة الإستقلال والوحدة لكل أمّة، على حِدة، يستحيل على الصعيد الأممي تحقيق إتحاد البروليتاريا، أو تحقيق التعاون السلمي والوعي بين هذه الأمم لبلوغ الأهداف المشتركة. وبهذا الصدد، لنتصور فقط لو أن العمال الإيطاليين، والمجريين، والألمان، والبولونيين، والروس، قاموا بعمل أممي مشترك في الأوضاع السياسية التي سبقت عام 1848 !

إذن، لم تكن معارك 1848 غير مجدية. ولم تكن غير مجدية ايضًا، السنوات الخمس والأربعون التي تفصلنا عن تلك الحقبة الثورية. فثمارها بدأت تنضج، وأتمنّى أن يكون صدور هذه الترجمة الإيطالية للبيان بشير إنتصار البروليتاريا الإيطالية، مثلما كان صدور النسخة الأصلية بشير الثورة الأممية.

"فالبيان" يُنصِف إنصافًا كليًّا الدور الثوري الذي قامت به الرأسمالية في الماضي. وإيطاليا كانت الأمة الرأسمالية الأولى. ونهاية القرون الوسطى الإقطاعية، وبداية العصر الرأسمالي الحديث، يجدان تعبيرهما في صورة عملاق هي صورة دانتي الإيطالي آخر شعراء القرون الوسطى، وأول شاعر في الأزمنة الحديثة. واليوم كما في حوالي عام 1300، يبدأ عصر تاريخي جديد. فهل تنجب لنا إيطاليا دانتي جديدًا يؤذن بولادة هذا العصر الجديد، البروليتاري ؟

فريدريك إنجلس

لندن، أول شباط (فبراير) 1893بيان "الحزب الشيوعي" ميلانو 1893

فهرس

كراسات ماركسية

من اجل وعي حقيقي بالماركسية نحاول في هذه السلسلة أن نقدم عددًا من الكراسات التي تلقي الضوء على أهم المفهومات التي جاء بها ماركس وانجلز وعديد من الماركسيين، لكي تشكل معرفة تأسيسية يمكن أن يُبنى عليها. واذا كانت المعرفة هي المدخل لتمثل أي فكر، فإننا نهدف هنا الى تقديم هذا المدخل الضروري والمهم، لكن في سياق وعي بان الماركسية هي اكثر من معرفة، لأنها بالاساس منطق تفكير، هو الجدل المادي. والهدف هنا هو اكتساب هذا المنطق من اجل ان يصبح طريقة تفكير الماركسيين، واداتهم في وعي الواقع الذي يعيشونه، وفي تغييره. الماركسية علم لهذا يجب ان تدرس كعلم، اي ان تدرس بجدية فائقة. والماركسي هو من تبنى الماركسية. لكن بعد ان يكون قد عرف افكارها وفهمها واكتسب منهجيتها، الجدل المادي. لهذا يجب الاضطلاع على هذه الافكار ودراستها من اجل ذلك.

تصميم الغلاف: غادة خليفة

روافد للنشر والتوزيع